الاعتبار
أهله ومواضعه وآثاره



بقلم
أ.د/ مبروك عطية
الأستاذ فى جامعة الأزهر
والداعية الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل الكتاب هدى ورحمة للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، ورحمة للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر الميامين ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين

وبعد

فإن الاعتبار إحساس حيّ ، يوقظ فى نفس المعتبر ضربين من ضروب المشاعر والأحاسيس

الأول : الفزع من أن يصيبه ما أصاب المعتدين الآثمين

والثانى : الاستبشار بالخير الذى أصاب الصالحين ، ويتوقف ذلك على سلوكه ومحاكاته أحد الفريقين ، ولن يشعر بذلك إلا مَنْ كان أهلا للاعتبار ، وليس كل الناس أهلاً للاعتبار ، فمن الذين يعتبرون ؟ ومن الذين لا يعتبرون ؟ وفيم تكون العبرة ؟ وما النتائج المترتبة على الاعتبار بالنسبة إلى الفرد ، وبالنسبة إلى الأمة ؟

أربعة فصول تحقق الغاية من هذا الكتاب الذى أقدمه هدية للثقافة الإسلامية ، ولكل حريص مهتم بالإصلاح .

فإن الإصلاح الحق شأنه شأن كل أمر ذى بال ، لا يقوم إلّا على منهج مدروس ، وخطة علمية صحيحة ،

وقد رأيت أن روح الاعتبار قد ماتت عند كثير من الناس خصوصاً الشباب ، أو كادت تموت ، وبمنتهى الموضوعية و السرعة والإتقان أقول : إن الشاب الذى يخرج لك لسانه إذا أردت أن تجعله من الذين يعتبرون دليل على موت روح الاعتبار فيه ، فليس أمامك إلّا أن تتركه يرتكب ما يرتكب من سوء ، وتعاقبه عليه ، سوف يزداد إذاً عدد الجلادين ، وسوف تحتاج إذاً إلى مزيد من السجون ، وسوف نريق إذاً كثيراً من الدماء ؛ لأن عدم الاعتبار معناه ارتكاب كثير من الجرائم والفظائع

والدليل على ذلك أننا وضعنا القوانين الصارمة التى وصلت إلى حد الإعدام فى المخدرات والاغتصاب ، فهل قلت – ولا أقول انتهت – هذه الجرائم ؟

والجواب : إنها لم تنته ، بل إنها تزداد

ولا معنى لذلك عندى إلّا أن تلك العقوبات لم تؤثر فى الذين يرتكبون أمثالها ، أى أنهم ليسوا من أهل الاعتبار ، ولو أنهم كانوا من أهله لما ارتكبوها

فالذين قال الله فيهم فى آية الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١

هم من أهل الاعتبار ، بدليل قول الله – تعالى – فيهم : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ) وقوله – جل فى علاه : (تَذَكَّرُواْ) وقوله جل ذكره – : (فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ)

فأنت ترى هؤلاء المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان فدعاهم إلى ارتكاب الفواحش ، تذكروا عقوبة الله ﷻ عليها ، فأبصروا ، فانتهوا ، فلم يرتكبوها

وقد قالت العذراء البتول عليها السلام – حين تمثل لها الروح بشراً سوياً : ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ ﴾ مريم: ١٨

أى إن كنت رجلاً تقياً ، ورأيتنى أعوذ بالرحمن منك رجعت ، ولا تمسنى بسوء إن أهل الاعتبار تمنعهم العبرة دون جلد ، و دون قانون صارم يوضع فى الحاضر أو فى المستقبل من أجلهم ، فيكفيهم ما كان من قانون ، وما هو كائن ، ويكفيهم ما ضربه الله ﷻ لهم من روائع الأمثلة ، ومن أحسن القصص فى كتابه الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو نصب أعينهم ، وفى قلوبهم ، وصدورهم ، ومنهج حياتهم ،

وعلينا أن نعتنى بقضية الاعتبار ، ونبين مواطنه ، ونجعل الأجيال أهلا له ، وذلك بإحياء العقول ، والقلوب ، وتجديد الخطاب الدينى الذى يكون الاعتبار آية من آياته، ومحوراً من أهم محاوره ، فهو ثابت فى كتاب الله ﷻ وفى سنة رسوله ﷺ والله ﷻ حين دعا إليه قال :

﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ الحشر: ٢

وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ النازعات: ٢٦

ومع الخطاب الدينى المستنير الذى تنضم إليه الجهود المخلصة فى الإصلاح من عناية بالتعليم ، والإعلام ، وغيرهما من مناحى تربية الأجيال ؛ فإن الإعلام قدم نماذج سيئة تهدم الاعتبار ، وذلك بأن خاطب غريزة الشباب دون فطرته ، واستخف بالمبادىء والمثل ، ودعا إلى ما يسمى بحرية الرأى والتعبير ؛ فاستضاف مَنْ لا علم عنده ليفتى الناس ، فأضلهم ، وصرفهم عن الخطاب الدينى المستنير إلى هوامش لا خير فيها ، وإلى أحاديث بلا سند ، وإلى تفسير أحلام ، يقول لهم : سوف يأتيكم رزق بلا جهد ؛ لأنكم رأيتم فى المنام لحماً تأكلون ناضجاً، ولو رأيتموه نيئاً لكان معنى ذلك : أنكم سوف تحصلون على هذا الرزق بجهد ومشقة ،

من أجل ذلك كان الاهتمام بالخطاب الدينى ومنه

(الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره) موضوع هذا الكتاب ، أملاً كبيراً فى تحقيق المصالح العامة والخاصة ، حتى نرى كثيراً من الناس يعتبرون ، ويختفى من قاموس هذا اللفظ البغيض (طز) الذى يمثل حقيقة لا مجازاً الاستخفاف بكل موضع من مواضع العبرة ، والذى يعلن بوضوح أن قائله لا يهتم ، ولا يعنيه شىء من تهديد أو موضع من مواضع العبرة والاتعاظ

والله ﷻ أسأل أنْ يعين على إتمام هذا العمل ، وأن يجعله عملاً صالحاً متقبلاً، وأن ينفع به الناس ، إنه أعظم مسئول وأكرم مأمول

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

أ.د / مبروك عطية

الأستاذ فى جامعة الأزهر

الفصل الأول

من الذين يعتبرون

(مَنْ الذين يعتبرون)

ليس كل الناس يعتبرون ، فيهم مَنْ يعتبر ، ومنهم من لا يعتبر ، وهؤلاء الذين لا يعتبرون يشكلون خطراً عظيماً على الأمة ؛ لأنهم والنظام الحاكم والناس جميعاً على حرب صريحة ، فإذا كثر هؤلاء ازدادت الحروب ، واستمرت ،

وما الحرب إلا علمتم وذقتمُ

وما هو عنها بالحديث المرجم

معنى ذلك أننا سوف نخسر الكثير ، وسوف تتحول حياتنا إلى حروب دائمة ، تكلفنا الكثير ، وسوف يكون من ضحاياها أناس ، لا ذنب لهم ، من يتطاير إليهم شرر تلك المعارك الطاحنة ، وسوف يُيَبّس أخضر ، وسوف يهلك مال ، وأخطر من ذلك كله أن تتولد أجيال جديدة على ذات المنهج ، عدم الاعتبار ، فلا يجدى نصح ولا توجيه ، ولا إرشاد ، ولن تنفع نصيحة ، ولا اعتبار ، وإنما تنشأ هذه الأجيال المولدة على جفاوة طبع ، وفساد طوية ، وإخراج لسان لكل آية ، والسخرية من كل موطن من مواطن العبرة ، من أجل ذلك كان علينا جميعاً أن ندرك هذا الخطر المظلم الذى بدت تباشيره فى كل مكان ، فرأينا جرأة على جريمة وازدياد لها برغم وجود القوانين الصارمة التى وصلت إلى حد الإعدام للاغتصاب ، والاتجار فى المخدرات ، ولو كان الأمر صحيا لقلت

تلك الجرائم ، ولا أقول انعدمت ؛ فإن المجتمع البشرى ليس مجتمعا معصوماً، وإنما هو مجتمع بشرى يخطئون ويصيبون ، لكن الخطأ يقل مع الاعتبار ، وبما أنه يزداد نتيجة عدم الاعتبار للأسباب التى نذكرها فى موضعها من هذا الكتاب ، وفى ذلك خطر عظيم يهدد الحياة جميعاً ؛ لأن الذى لا يعتبر بالموعظة وأحسن القصص ، وإقامة الحدود ، وتطبيق القوانين سوف يعرضنا لإقامة مزيد من الحدود ، وإعادة النظر فى قوانين كثيرة ، وإنشاء قوانين جديدة ، وكل ذلك على أمل أن يعتبر هؤلاء ، وبما أنهم لن يعتبروا فسوف نظل نعدمهم ، أو نجلدهم ، أو نضربهم ، أو نحبسهم إنْ قدرنا عليهم

فما عسى أن يكون إن لم نقدر عليهم ، لا شك أنهم سوف يعبثون فى الأرض فساداً ، وسوف يزدادون فساداً وإجراماً،

إنهم هؤلاء الذين يعيشون فى الصحارى ، فيفرضون الإتاوات على مَنْ يبنى له فيها بيتاً ، ومَنْ يذرع فيها مساحة ، رجل يبتغى الحياة ، ولكن يتهدده مَنْ لا يتقى الله ،فهو لا يرتدع ، ولا يعتبر ، والذين يعتبرون هم الذين حدثنا ربنا – تعالى – عنهم فى كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهم :

(١) أصحاب العقول السليمة

قال الله – تعالى – : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ يوسف: ١١١

نعم ، ما يعتبر بقصص الأنبياء ، وغيرهم إلا الذين هم أولو الألباب ، الذين يعقلون الحكمة ، ويدركون مواضعها ، ويتوقفون عندها ، أي ليسوا الذين يتخذون من قصص الأنبياء ، وغيرهم مناط تسلية ، ومواضع قضاء للأوقات أو إثارة شعور ، حيث تجد دموعاً تسكب ، والقلوب قاسية .

ذكر ربنا – تعالى – هذه الآية الكريمة عقب قصة يوسف عليه السلام ويتدبرها ، ويعتبر من كان له عقل ،فيقف على حقائق مهمة منها

- أن قصص القرآن الكريم أحسن القصص ، لبعده عما لا فائدة منه ، ولأنه وحى ، قال الله – تعالى – فى صدر السورة الكريمة :﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ يوسف: ٣

- وأن العاقل إذا استشعر أن أحداً لا يحبه فإنه لا يقص عليه كل شىء ، بحيث يكيد له ، ألا ترى إلى قوله تعالى :﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ يوسف: ٥

- وأن من ركائز الدعاء أن يذكر الداعى فضل ربه القديم عليه ، أى يقول مثلاً والد البنات اللائى تزوجن إلا واحدة : اللهم كما سترت فلانة وفلانة وفلانة بأزواج صالحين وفق أختهن

والدليل على ذلك قوله – تعالى – : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ يوسف: ٦

ومن دعاء الصالحين قولهم : (اللهم كما سترتها فيما مضى فاسترها فيما بقى)

- وأنه ليس كل باك صادقاً، ألا ترى إلى قول الله – تعالى – :﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ يوسف: ١٦ – ١٨

وقد زار أحد العلماء القاضى شريحاً ، وقد جاءته امرأة تشكو زوجها وتبكى ؛ فرق لها ؛ فقال له العالم الضيف وكان صديقه :

لا يغرنك بكاؤها ؛فقد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون ، وكانوا كاذبين ، فأفاق القاضى ، وقال لصديقه العلامة : أحسنت

• ومنها الاطمئنان إلى وعد الله ﷻ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ يوسف: ١٥

وقد كان، صار وزيراً، وجاءه إخوته، فعرفهم وهم له منكرون

• ومنها أن الزاهد فى شىء يبيعه بدراهم معدودة يبخسه قبل أن يبخسه المشترى الراغب فيه، قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ يوسف: ٢٠

• ومنها أن الحر الأصيل لا يخون مَنْ أحسن مثواه فى ماله أو فى عرضه؛ قال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ يوسف: ٢٣

• ومنها أن الدعاء ملتبس بالعمل، بدليل أن يوسف عليه السلام قد استبق بالباب بعد أن قال لها: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ يوسف: ٢٣

ثم قال: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ يوسف: ٣٣

وقد استجاب الله – تعالى –، قال عز من قائل: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾ يوسف: ٣٤

الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره

ومن أهم الدروس المستفاد، والتى هى من مواطن العبرة فى القصة الكريمة أنّ الخير لا يؤجل، ألا ترى أن يوسف عليه السلام قد دعا إلى الله ﷻ وهو فى السجن، لم ينتظر حتى يخرج منه، بل انتهز فرصة تفسير الرؤيا بأن دعا إلى الله، وكانت دعوته إليه سبحانه أكثر من تفسيره الرؤيا

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ يوسف: ٣٩ – ٤٠

ثم جاء تفسير الرؤيا فى كلمات معدودة ختم بها دعوته إلى الله، ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ يوسف: ٤١

• ومنها الأخذ بالأسباب، والدعوة إلى الشفاعة الحسنة: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ يوسف: ٤٢

وهذه الآية الكريمة تدفع قول مَنْ قال: إنه لبث فى السجن بضع سنين؛ لأنه قال للذى ظن أنه ناج منهما: اذكرنى عند ربك، فلجأ إلى العبد

ولم يقل : (يارب)

فهذا كلام لا يليق فى حق نبى كريم ،

قال: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ ﴾

والله ﷻ قال : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾ يوسف: ٤٢

ما قال : فأنساه الله ، وإنما قال فأنساه الشيطان ، وذلك لأن الذى قيل له اذكرنى عند ربك ، كان ساقى الملك الخمر ، وعاجن السم يذوقه ، كما يقولون ، فهو صاحب خمر ، وصاحب الخمر لا يذكر إلا نادراً ، ولا يأمر بمعروف ، ولا ينهى عن منكر ، والله تعالى يقول : ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾ البقرة: ١٠٦

ما قال : ما ننسخ من آية أو ينسينك الشيطان.

صحيح أنّ الحق تعالى قال : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾ الكهف: ٦٣

فلما ارتد كليم الله – تعالى – موسى وفتاه ، وجدا عبداً من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، وهذا من الأدب مع الله ﷻ لكن هنا أخبر بأنّ الشيطان قد أنساه ذكر ربه

• ومنها بيان ما عليه رسل الله – تعالى – من الصبر الجميل ، ألا ترى إلى قول يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يوسف: ١٨

وإلى قول يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ يوسف: ٥٠

وقد قال فى ذلك سيدنا رسول الله ﷺ : (**رحم الله أخى يوسف لو كنت مكانه لأجبت الداعى**)

وهذا من تواضعه ﷺ ومن إشادته بخلق إخوانه النبيين الذين سبقوه أى لو كان خاتم النبيين ﷺ وجاءه الداعى إلى الخروج من السجن لخرج معه ، وترك السجن دون أن يقول له : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ، لكنه البرىء الذى يريد أن يخرج بعزة وكرامة ، وإثبات براءته

وقد كان : ﴿ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ ﴾ يوسف: ٥١

• ومنها أن أمن الفتنة ، وكان أهلاً للولاية سألها ، وذلك لقول الله ﷻ :

﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (٥٥) ﴾ يوسف: ٥٥

- ومنها أنّ الجاد فى وعده لا يمنعه من تحقيقه إلا الموت ، قال ﷻ : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ يوسف: ٦٦

- ومنها عدم الاستعراض ، والتعرض للعائن ، ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ ﴾ يوسف: ٦٧

- ومنها عدم اليأس من رحمة الله ﷻ بحال ، وإنْ تقطعت الأسباب ، وظن أنه لا أمل فى تحقيق شيء ، ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ يوسف: ٨٧

- ومنها اتساع الصدر بالعفو خصوصاً بعد أن منّ الله – تعالى – بالقدرة ، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يوسف: ٩٢

- ومنها أن الحبيب يشم ريح محبوبه من مسافات بعيدة ، وأن أثراً منه يشفى معضلات ، ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ يوسف: ٩٤ – ٩٦

وقد روى البخارى من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أن إبراهيم عليه السلام زار ولده إسماعيل مرتين ، ولم يجده فيها ، وترك له فى المرة الأولى وصية أن يغير عتبة بابه ، وفى الثانية قال له : قد استقامت عتبة بابك

روى أن إسماعيل عليه السلام قال لامرأته الأولى : هل زارنا اليوم من أحد ؟ وقال للثانية فى ذلك ؛ لأنه شم رائحة أبيه فى المرتين

واليوم من غير شك لا أحد يشم رائحة أحد ، حبيباً كان أو غير حبيب ، وسبب ذلك عدم صفاء النفوس ، لا الأجواء ، ونحن لا نطمع فى هذا المستوى الأعلى من شم رائحة الأحبة ، وإنما نطمع فى تحقيق مقتضى الحب ، الذى هو العطاء ، وصون العهود والعقود ،

- ومنها الحديث عن المسرة ، والنصر ، والفتح ، والإعراض عن الإساءة ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ ﴾ يوسف: ١٠٠

فأنت ترى يوسف عليه السلام حدث أباه عن خروجه من السجن ، لا عن دخوله فيه وهو برىء ، فهو لا يحب أن يثير فيه روح النكد ، كما يفعل كثير من الناس ،

إذا التقوا مع مَنْ يدعون أنهم يحبون حدثوهم عن الأزمات دون انفراجها ، وعن الصعوبات دون حلها ، وعن الدموع دون الابتسامات ، وعن الأزمات دون ما فتح الله – تعالى – من حلول لها ،

فهل رجل عاد من سفره ، بعد غياب ثلاثة أعوام ، وقد فتح الله عليه ، فرصد مبالغ كثيرة فى البنوك ، وأرسل إلى أهله نفقاتهم وزيادة ، وجاء محملاً بالهدايا والتحف ، وحين جلس إلى أهله يحدثهم ما حدثهم كما حدث يوسف عليه السلام أباه وإنما حدثهم عن المآسى ، وأول عهده بالغربة والناس ، وما ذاقه من أهوال ، وما عاناه من أزمات إلى درجة أنهم كانوا يبكون ، ولو فهم هذا الدرس واعتبر ، لما حدثهم إلى عما فتح الله – تعالى – به عليه مِنْ خيرات ، ونعم كثيرة ، وما حمله من أجلهم من هدايا وتحف ، ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ يوسف: ١٠٠

• ومنها أن سؤال الله – تعالى – الوفاة إنما يكون بعد مظنة أن الإنسان قد أدى رسالته فى هذه الحياة ، وليس كما هو شائع الآن على كل لسان تقريباً ،حيث يقول قائلنا فى الذهاب والإياب : (**اللهم أخرجنا منها على خير**)

وأنا أقول : ألا يحسن أن تسأل الله – تعالى – أن يدخلنا فيها أولاً ، بأن نتعلم ونعلم ، ونبنى ونعمر ، ونحرر الأقصى ، ونرفع راية الدين ، ثم نسأله بعد

ذلك أن يخرجنا منها على خير ، والدليل على ذلك أن يوسف عليه السلام لم يسأل الله – تعالى – أن يتوفاه مسلماً إلا بعد أنْ ذكر ما ذكر من فضل الله عليه فى الدنيا ، قال عليه السلام : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ١٠١

من أجل ذلك وغيره سيقت هذه القصة وغيرها كى يعتبر أولو الألباب ، أى أصحاب العقول السليمة ، الذين يأخذون العبرة من القصص القرآنى ؛ لأنه أحسن القصص ، وليس مجرد أحاديث ، وروايات ، وصراع درامى ، وحبكة فنية ، وحوار ، ووصف ، وسرد ، وعقدة ، وحل على ما يراه الكاتب ، وما هى عليه فلسفته ، ورؤيته التى قد ترى الانتحار خيراً من الحياة ، والقتل خير من العفو ، والتسول خيراً من العمل ، والزنا أفضل من الزواج ، ولذا قال الله – تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ يوسف: ١١١

(٢) أولـــو الأبصـــار

(فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

وفى آيتى آل عمران (١٢ ، ١٣) يقول الله – تعالى – :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٢ – ١٣

رؤية جديدة ، يدعو إليها النظم الجليل ، وهى رؤية النصر للعدد القليل على العدد الكثير ، والعدوان مرئيان ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ آل عمران: ١٣

والعين التى ترى ذلك ترى أيضاً بداهة أن النصر للكثير دون القليل ، وهنا يختلف النظر ، ويخالف المعهود ، فالمقدمة على ما ترى العين ، فئة قليلة ، ولكنها تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كثيرة ، لكنها كافرة، لكن النتيجة مختلفة عن المعهود ، وهى أن النصر للفئة القليلة دون الكثيرة ، والسبب : أنها فئة تقاتل فى سبيل الله

وقس على ذلك كل أمر كان خالصاً لوجه الله ﷻ ترى أنّ له تيسيراً لا يكون لغيره ، وأذكر فى هذا السياق ما كان يوم الاحتفال بالانتهاء من تفسير الكشاف الذى قدمه جار الله الزمخشرى – رحمه الله – وذكر فيه أنه فرغ منه فى مدة خلافة الصديق ، أى كتبه فى عامين وبضعة أشهر ؛ فقام أحد الحضور من العلماء ، وسأله أمام الجميع : كيف أنهيت هذا العمل الكبير فى تلك المدة الوجيزة ؟ فأجاب رحمه الله بقوله : إنّ الله أذا تسنى لشىء تيسّر

وفى سورة آل عمران يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٣

وفى سورة المائدة يقول الله – تعالى – : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ المائدة: ١٠٠

والإسلام – كما أقول دائماً – ليس ضد الكثرة ، بشرط أن تكون كثرة من حلال ،وكثرة قوية ، مؤمنة ، فإن لم تتوفر تلك الكثرة فعلى القلة ألا تيأس من نصر الله ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٤٩

والدروس المستفادة من ذلك كثيرة ، وعظيمة ، وأعلاها عدم الاستخفاف بالقلة المؤمنة ، وذلك أننا رأينا كثيراً من الناس يخشى الكثرة ، ويستخف بالقلة بل إن من الناس مَنْ يضعف إيمانه لما يرى من قلة عدد له في أسرة وأنصار ، وقلة مال ، ويقول : نحن صعاليك ، والمثل يقول : ماذا تفعل يا صعلوك بين الملوك ، وغير ذلك مما هو معروف ، ومألوف ، ومن المؤسف أن يكون مألوفاً إذ على المسلم أن يكون على ثقة بربه ومولاه ، وألا يمنعه من الجهاد مانع من قلة أو عدد ، متى دعت إليه الضرورة ، وقد قال الله – تعالى – :

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال: ٦٠

و(ما) من المبهمات ، وقد تستطيع قليلاً، وقد تستطيع كثيراً، القضية إذاً قضية صدق مع الله ﷻ إذْ أنه بكل شيء عليم ، فحين تقول : يارب ، هذا ما استطعنا ، وهو به عليم فلن يقول الله – تعالى – لنا : وهذا لا ينفع كما يقول الناس بعضهم لبعض ، ومنهم والد العروس الذى يلقى زواج ابنته من شاب قال له : يا عمى ، هذا كل جهدى ، ولو كنت أقدر على أن آتيك بنجوم السماء من أجلها لفعلت ، ولقلت إنها هينة ، فابنتك تستحق الكثير ، ولكن هذه طاقتى ، فيقول له الكبير : عُدْ إلى أمك يا ولد ، ليس عندنا بنات للزواج ، ويأبى حتى المناقشة والمفاهمة

لقد خرج واثلة بن الأسقع البكري الليثي ﷺ مع النبى ﷺ إلى تبوك ، ولم تكن معه دابة تحمله ، لكنه أعلن فى الناس : مَنْ رجل يحملنى وله نصف ما يفتح به الله عليّ؛ فحمله كعب بن عجرة ﷺ فلما فتح الله عليه جاء بنصفه وكان من الإبل ، ونادى كعبا ، وقال له : هذا نصيبك ، وهو ما اتفقنا عليه ، فضحك كعباً، وقال : هل تظن أنى حملتك من أجل هذا ! والله ما حملتك إلا لوجه الله – تعالى – ولم يأخذ منه شيئاً ، ودعا له بالبركة فيما فتح الله به عليه

وذلك أنه ﷺ بايع رسول الله ﷺ على الطاقة ، وكان بوسعه أن يتخلف قائلاً: لا أجد مَنْ يحملنى ، لكنه رأى أن من طاقته أن يسأل الناس

- مَنْ رجل يحملنى ، وله نصف ما يفتح به الله عليّ ؟

وهكذا ، لو أن كل إنسان بذل طاقته على الوجه الذى بذله واثلة بن الأسقع البكرى الليثى ، لتغير وجه الحياة ؛ إذ بوسعنا أن نفعل الكثير ، وأن نقدم الكثير ، لكننا ندعى العجز ، ونلتمس مظاهره من قريب وبعيد ، ونعتذر ، وفينا من يكذب ، فينا مَنْ يدعى المرض وهو ليس مريضاً ، وفنيا من يدعى العجز عن حمل شيء ، وهو قادر على أشياء ، وفينا مَنْ يدعى الفقر وهو غنى ، وهكذا

فلو كنا صادقين ، ولم يكن فى وسعنا إلا القليل لبارك الله فيه

صدق أبو عقيل الأنصارى حين جاء النبى ﷺ بصاع من تمر ، وهو نصف ما كسبه ، وكان يؤجر نفسه لسقى زرع الناس بصاعين من تمر ؛ فترك صاعاً لعياله ، وجاء بصاع صدقة ، كما جاء عبد الرحمن بن عوف بنصف ما كسبه ، وكان أربعة آلاف ، صدق أبو عقيل ، وصدق عبد الرحمن ، وتقبل الله – تعالى – من كل ، وأبو عقيل هو الذى لمزه المنافقين ، وسخروا منه ، وقالوا : إن الله عن صدقة هذا لغنى ، فأنزل الله – تعالى – قوله من سورة التوبة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ التوبة: ٧٩

وقد قال النبى ﷺ لأبى عقيل حين جاءه بالصاع : انثره فوق الصدقات

يقول مؤلف هذا الكتاب : وكأن رسول الله ﷺ أراد أن يتوج فى الصدقات بصدقة تلك التى سخر منها المنافقون ، وهى عند الله عظيمة ؛ لأن الذى جاء بها صادق

والله ﷻ يقول فى صدر سورة الحشر :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ

وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ الحشر: ١ – ٢

ما أكثر مشاهد الاعتبار التى تبدو فيها الرؤية غير عادية ، إن الرؤية العادية تقول : إن الحصون مانعة ، وإن المرء لا يخرب بيته بيده ، ولكن الله ﷻ يقول :

(وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ) فهم يخربون بيوتهم بأيديهم ، وأيدى المؤمنين

وعند الله ﷻ دائماً ما لا نحتسب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق: ٢ – ٣

وقوله تبارك اسمه :- ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران: ٣٧

وأنت هيهات أن تأتى أخاك الجالس فى بيته إلّا من حيث يحتسب ، أى من الباب ، أو من الشباك إن كان هناك سبيل صعود إلى الشباك

ويمكن أن يكون شباكك بالطابق الأرضى ، لكنه به حديد يحول بين اللص وبين مبتغاه من بيتك ، فلا يستطيع لص ولا حبيب ، ولا صديق أن يأتيك منه ، فليس أمامك إلّا الباب تحتسبه ، وتتطلع إلى زائرك الذى يأتيك من خلاله

لكن الله يأتيك ، من حيث لا تحتسب ، أى تأتيك رحمته ، ورزقه من حيث لا تحتسب ، وكذلك يأتيك عذابه ، والعياذ بالله من حيث لا تحتسب ، واعتقاد أنّ هناك شيئاً يرفع عنك السوء ، ولو من البرد والحر عن يقين، كذلك بالنسبة إلى الله – تعالى – اعتقاد غير صحيح ، بدليل أنّ الذين كفروا من أهل الكتاب ظنوا (أى اعتقدوا) أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فما منعتهم حصونهم الحصينة من عذاب الله ، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فما أغنت عنهم حصونهم

كما قال الله ﷻ فى قارون حيث خسف به وبداره الأرض: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ القصص: ٨١

وقال فى صاحب الجنتين الذى ندم بعد فوات الأوان ، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً ، قال فيه ﷻ : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الكهف: ٤٣

كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ الشورى: ٤٦

وحين زعم ابن نوح عليه السلام أنه سوف ينجو من الغرق إذا آوى إلى جبل يعصمه من الماء قال له أبوه كما أخبرنا ﷻ : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ هود: ٤٣

هذا هو الفرق بين المؤمن والكافر ، المؤمن يعتقد أنّ الله إذا أراد بعبد أو بقوم سوءاً فلا مرد له ، ولا فئة تنصره من الله ، ولا سبب يحميه ، والكافر يعتقد أن الحصون مانعة ، وأن الجبال عاصمة ، وأن السبب نافع أبداً

والمؤمن مأمور بأن يأخذ بالأسباب ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الكهف: ٨٤ - ٨٥

لكنه فى الوقت نفسه لا يعتقد أنها تبلغ به ما يريد إلا إذا أراد الله ﷻ

أى أنه غير مفتون بالسبب

إن شبابنا خاصة فى حاجة إلى هذا الدرس من دروس الاعتبار ، حتى لا يفتنوا بصحة ، ولا بمال ، ولا بما يتوفر من سبب يركبون متنه ، ولا يعتبرون ، أى أنهم يطمئنون إلى الدنيا ، ويركنون إليها ، ويتفحشون إذا كان السبب قوياً،

يظنون أنهم به محميون ، وأنهم به آمنون ، فإذا هم فى الأرض بغير الحق يبغون ، وبغيهم على أنفسهم

فإذا اعتبر هؤلاء الشباب وغيرهم فقد أنقذوا أنفسهم ورحموا مجتمعهم وأهليهم من عذاب الله – تعالى – الذى يأتيهم من حيث لم يحتسبوا

وتأمل قول الله ﷻ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ هود: ٢٩ – ٣٠

والله ﷻ يقول فى آية النور (٤٤) : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ النور: ٤٤

يذكر الآلوسى فى روح المعانى ١٢/ ٦٠٠ أن الأبصار جمع بصر ، وهو بمعنى البصيرة

وذكر رحمه الله أن قوله تعالى : (ذلك) بلام البعد لبيان علو مرتبة ذلك مع قربه ، أى قرب الليل والنهار بالنسبة إلى المعتبر ، ولكن الإشارة بها يفيد البعد دليل على علو مرتبته ، أى عظيم أثره

وقد ذكر ، كما ذكر غيره أن تقلب الليل والنهار معناه بما يكون فيهما من حر ، وبرد ، ومن طول وقصر ، وهذا دليل على وجود الصانع ﷻ

وأنا أقول : إن هذا صحيح ، ولكن لدىّ إضافة : هى أن الليل والنهار ظرفان للأحياء ، وإذا كان الظروف يقلب فلا شك أن مظروفه يتأثر بتقلبه ، فالمرء مع تقلب الليل والنهار يكبر ، ويضعف ، وفى النهاية يموت

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم: ٥٤

وفى ذلك من الاعتبار ما فيه ، إذ إن الطفل لن يظل عمره طفلاً ، والشاب لن يظل عمره شابا ، وإنما هى مراحل ، وعليه أن يؤدى رسالة حياته فى كل مرحلة ، وقد رأيت أن من عظيم الاعتبار ما أشار إليه العلامة الآلوسى هنا من علو المرتبة ، أنه لم يأتى إلا كذلك فى آيات الاعتبار

إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ، وإن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ، وإن فى ذلك لآية ، وهكذا ، فما من موضع من مواضع الاعتبار إلا وقد جاء فيه الإشارة بلام البعد ، فلا جرم أنه عظيم ، وأن أثره عظيم ؛ لأن فيه يتغير السلوك دون إراقة دماء ، وقطع أيد ، ونزول عذاب .

(٣) الذين يخشون ربهم

وفى خاتمة قصة موسى عليه السلام وفرعون من سورة النازعات يقول الله – تعالى – :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ النازعات: ٢٦

أى أن الذين يعتبرون هم الذين يخشون الله ﷻ ونحن مع الأسف ، تقتل الخشية فى قلوب الناس خصوصاً الفاحشة ، لا تخوفهم ، ولا تزرع الخشية فى قلوبهم ، بل نقول لمن نصح لهم : دعهم ، فإنك لست ربهم الذى يحاسبهم ، يحاسبهم الله ، وهو الغفور الرحيم

وإذا تحدث الواعظ فى هذا السياق اتهم بأنه متشدد متطرف ، يخيف الناس من الله ﷻ والله هو الغفور الرحيم ، وهذا صحيح إن كان هذا الواعظ لا يراعى المعادلة فى وعظه بأن يذكر الثواب مع العقاب ، والخوف مع الرجاء ، قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ الحجر: ٤٩ – ٥٠

وقال عز من قائل : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ ﴾ الزمر: ٩

فليس من الصواب أن يفتح باب الرجاء أبداً ، وليس منه أن يفتح باب الخوف أبداً

فالذين يريدون أن يربوا أبناءهم تربية إسلامية صحيحة عليهم أن يربوهم على خشية الله ﷻ

فقد ربّى الله – تعالى – عليها أنبياءه ورسله ، قال الله ﷻ فى آية الأحزاب (٣٩) : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٩

فانظر إلى صفوة الخلق ، المعصومين ، وهم أعلم الناس بالله ﷻ الذى صنعهم على عينه ، واصطفاهم لتبليغ رسالاته ، ووعظ خلقه ، كيف كانوا يخشون الله ، ولا يخشون أحداً إلا الله

وقد روى فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : (**والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له**)

وحين نزل عليه قوله تعالى من سورة الأنعام الآية (٦٥) : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ الأنعام: ٦٥

قال : أعوذ بوجهك

قيل قال ذلك فى كل مرة ، وقيل قال : **أعوذ بوجهك** فى الأول ، فلما قال : أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا

قال : **هاتان أهون** [1]

ما قال ذلك ﷺ إلّا عن خشية فى قلبه

وقد روى البخارى حديثه ﷺ : (**والذي نفسى بيده وأنا رسول الله ، لا أدري ما يفعل بي**) وذلك حين سمع المرأة التى مات في بيتها عثمان بن مظعون : أكرمك الله أبا السائب ؛ فقال ﷺ : مَنْ ذا الذى يتألى على الله ؟

فقالت : يا رسول الله ، إنه صاحبك أبو السائب ، فمن يكرم الله إن لم يكرمه ؛ فقال ﷺ الحديث

ومعلوم أن الذى لا يخشى الفقر ينفق ، عاد رجل من عند رسول الله ﷺ إلى قومه ؛ فقال لهم وقد رأى من كرمه ﷺ ما رأى :

– لقد جئتكم من عند رجل ينفق ولا يخشى الفقر

ومن يتأمل هذا المعنى يدرك أنّ الذى يخشى الفقر يعمل من أجله ألف حساب ، فهو حذر عندما ينفق ، وكذلك من يخشى الله ﷻ فى سلوكه ،

---

(١) الكشاف (٢/ ٢٦)

وإذا ثبت أنه يخشى الناس فالله ﷻ أحق أن يخشاه ، قال الله – تعالى – :

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾

الأحزاب: ٣٧

ومَنْ لا يعرف الخشية من الناس لا يعرفها كذلك مع الله ﷻ وقد كان ذلك سبيل الذين دمروا فينا المعانى ، فقتلوا الإحساس بالخشية من الناس ، ودعوهم إلى الجرأة والفحش ، تحت شعار (اللى اختشوا ماتوا) وتحت شعار الحرية

جرّأت الأم الغبية أولادها على عدم الخشية من أبيهم ، فما عاد ابن ولا ابنة يخشى والده ، وبأسّه ، ولومّه ، وضربه وعذبه إن لزم الأمر ، وهناك آباء يسلكون هذا المسلك ، فيصغرون الأم فى عين أبنائها ، وأنها ليست أهلاً لكى يخشوها

وصار التلميذ لا يخشى معلمه ، ولا أخاه الكبير ، ولا غيرهما

وصار الموظف لا يخشى رئيسه ، ولا مدير المصلحة أو المؤسسة التى يعمل بها ؛ فانفرط العقد الذى كان منتظماً

والذين لا يعرفون الخشية من الناس يؤمهم فى ذلك أمران

الأول : أنهم لا يخشون ولا يخافون أحداً إلا الله

والثانى : أنهم يستخفون بها وراء الناس من عقوبات ، ولا صحة لـلأول ، ولا صحة للثانى ، أمّا الأول فإن الله ﷻ جعل الولاية بين الناس من قـوام الحيـاة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ النساء: ٥٩

ويقـول ﷻ : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١

وأما الثانى: فإن الاستخفاف بها وراء المخشى مـن النـاس مـن ثـواب قليل لا يدعو إلى توقيره ، ومن عقـاب ضـئيل لا يـدعو إلى الخـشية منه فهـذا مذهب المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، فإن المؤمن لا يسلك هذا الـسلوك أبداً بـدليل : أن الله ﷻ يقـول :﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة: ٧ – ٨

وأن الرسول ﷺ يقول : (**لو دعيت إلى كراع لأجبت**)

أى لو دعى إلى شىء قليل مثل الكـارع لأجـاب دعـوة الـداعى ، فـإن إجابـة الداعى لا تكون بناء على ما دعا إليه من صنوف الطعام العالية الغاليـة ، وإنـما للتواد والتراحم ، والتواصل ، وجبر الخاطر ، وهو من المعانى السامية

الفصل الثاني

مواطن العبرة في الكتاب الكريم

مواطن العبرة فى الكتاب الكريم

يقول الله ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ يوسف: ١١١

أى أن موضع العبرة قصص الأنبياء ، وقد جاءت هذه الآية نصاً فى سورة يوسف عليه السلام ومواضع العبرة فى تلك السورة كثيرة جداً ، ومنها

١ – أن الإنسان لا يقص على الذين يعلم أنهم فى صدورهم شىء منه ما يزيدهم غيظاً

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ يوسف: ٥

٢ – ومنها أنّ الدعاء من ركائزه (كما) ،

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ يوسف: ٦

وبشىء من التفصيل أقول :

لو أن رجلاً رزق ثلاث بنات تزوجت اثنتان منهما وبقيت واحدة ، وأراد أن يدعو لها فليقل : (اللهم كما سترت ابنتى فلانة وفلانة بزوج لكل منهما فارزق أختهما كذلك)

ومن دعاء العلماء العاملين الثقات :

(اللهم كما سترتها فيما مضى فاسترها فيما بقى)

ولكن الملاحظ أنّ (كما) هذه منسية فى الدعاء عند كثير من الناس ، فالناس يدعون ، ولا يذكرون سابق فضل الله – تعالى – عليهم ، وهو مهم فى الدعاء ، وفى ذلك عبرة عظيمة للذين هم أهلوها

- ومنها أنّ معية الله إذا تحققت أمنت ، ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾ يوسف: ١٥

- ومنها أن الحبيب يشعر بالحزن لمجرد ذهاب حبيبه عنه ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾ يوسف: ١٣

مجرد ذهابهم به يحزنه ، فما عسى أن يفعل الذى يذهب بعيداً عن أحبته أعواماً ، لا شك أنه يجاهد مضطر ، والله معه ومعهم إذْ يعيشون العنت من أثر الفراق ، وكيف يدعى الحب مَنْ له طاقة على وداع من ْ يدعى أنه يحبه !

- ومنها أنّ الصبر الجميل يتجلى فى أصعب المواقف ، وهو ما لا شك فيه إلا لله ﷻ !

- ومنها أن الذى يزهد فى شىء يبيعه بثمن بخس ، قال ﷻ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يوسف: ٢٠

- ومنها أن الفراسة قد تصدق ، فقد صدقت فراسة العزيز حيث قال لامرأته : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ يوسف: ٢١

- ومنها أنّ مَنْ بلغ أشده واستوى كان أهلاً للحكمة والعلم ، لا أنه قد وصل إلى مستوى الشباب فترة الضياع ، واللهو والشات ، والبنات ، والنساء والقهار

ومن ثم كان على أولى الأمر أن يهتموا بتثقيف الشباب ، والعناية بهم ، وتنمية عقولهم ، والارتقاء بوجدانهم

- ومنها أنّ الصالحين لا يخونون من أحسن إليهم ، فى عرضه ولا فى ماله ، قال تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ يوسف: ٢٣

- ومنها أن الفرار من الفتن واجب

قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ يوسف: ٢٥

- ومنها أنّ الدعاء يكون ملتبساً بالعمل

فقد رأينا يوسف عليه السلام قد قال : (معاذ الله) ، وجرى واستبق الباب ، ومع ذلك قال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يوسف: ٣٣

وقد استجاب الله دعاءه ؛ إذ كان دعاؤه ملتبساً بالعمل ، ولم يكن مجرد دعاء خال من العمل ؛ فلا يحسن أن يدعو الله – تعالى – شاب أن يصرف عنه كيد النساء ، وهو يجلس إلى الشات يخاطبهن ، ويمشى فى شوارعهن ، ويقف على النواصى ، وأمام مدارس البنات زاعماً أن الله – تعالى – قادر على أن يحمل البنات على ريح لتذهب بهن إلى مكان مهجور ، ولكن يسأل الله – تعالى –

ذلك مَنْ نأى بعرضه ، وذيله عنهن ، ولم يتبع سبيلاً تؤدى إليهن ، ولم يفتح نافذة تطل عليهن ، وهكذا يدعو كل مَنْ يريد عملاً وربحاً ، وكل من ترغب فى زواج ، أى تسأل الله – تعالى – أن ييسر لها زوجاً صالحاً، وهى صالحة كذلك ، لا يعقّد لها وليها أمر زواجها ، ولا تطلب ما لا طاقة لشاب به ، وهكذا

• ومنها أن الدعوة إلى الله ، وكل هدف نبيل لا يؤجل إلى حين ، متى وجد الإنسان فرصة لأدائه ،

ألا ترى أن يوسف عليه السلام دعا إلى الله – تعالى – وهو فى السجن ، لم ينتظر حتى يخرج منه، بل إنه انتهز فرصة المنام الذى تحالماه صاحباه فى السجن ، وقال لهما :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ

الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره

أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ يوسف: ٣٧ – ٤١

• ومنها أن مَنْ ترك حراماً، واعتزل فساداً فإن الخير يأتيه ، ألا ترى إلى قول الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يوسف: ٣٧

أى لما ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله كان أهلاً ؛ لأن يعلم الله

وكذلك قال الله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ مريم: ٤٩ – ٥٠

قال الله : (فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا) أى من هبات الدنيا وحسنتها كما قال الزمخشرى ،

وتلك قضية من أهم القضايا موضع العبرة فى الكتاب الكريم عامة ، وفى سورة يوسف خاصة

فقد شاع بين الناس أن من يعتزل الحرام فسوف يفتقر ، وأنه لا سبيل أمامه غير هذا ، يقول ذلك المطففون ، والناقصون فى الكيل والميزان ، والغشاشون الذين يزعمون أنهم مضطرون إلى هذا السلوك ، فإن الحلال لا يكفى كما يقولون ،

وكأن هؤلاء الذين يركعون لله ويسجدون يؤمنون بأن الحياة بلا رب ، ولا تدبير ، ولا إنقاذ من قبل الإله الحق ، الذى وعد من يعتزل الحرام بمزيد من الفضل والرحمات ، ألا ترى أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٣٧

وإلى قول ربنا ﷻ : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ مريم: ٤٩ – ٥٠

ويقول ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

الطلاق: ٢ – ٣

فبأى حديث بعده يؤمنون ، ناهيك بما تسمعه من المحرمات فى سفورهن اللاتى يقلن : إننا منذ التزمنا ، وغطينا رءوسنا ، وصلينا ، والمصائب ترف فوق رءوسنا ، ومن ثم خلعن الحجاب بعد ارتدائه ، وتركن شعائر الدين بعد أن التزمن بها،

وصحيح قد يكون ذلك واقعاً لنقطة فى بحر الخيرات التى سوف تأتى ، وكبداية لخيرات كثيرة

أولها ابتلاء يسير ، ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ العنكبوت: ١ – ٣

ثم يأتى من بعد النجاح فى هذا الابتلاء خير كثير ، ألا ترى إلى قول الله – سبحانه – : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأنفال: ٢٦

لكن بعض الناس يريدون النتيجة فورية ، أى بمجرد أن يصلوا ركعتين ، وبمجرد أن تضع المرأة غطاء فوق رأسها تريد وابلاً من الخيرات يتساقط فوق رأسها ، ويغمر بيتها ، وإلّا فلا خير فى تلك العبادة ،

يذكرنا ذلك بمن قال الله – تعالى – فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ الحج: ١١

كان فى الناس من يقول لنفسه وامرأته : نحن نذهب إلى المدينة ، وندخل فى هذا الدين ، فإن ولدت المرأة ذكراً ، وحملت الناقة ، وازداد الخير ففى هذا الدين بركة ، وإلّا فلا خير فيه ، هذا معنى مَنْ عبد الله على حرف، أى على شرط ، كما قال ربنا – تعالى – : (فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ) قال ﷻ : (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

ومنها أن الشريف الأبى العزيز يأبى أن يخرج من السجن لأدنى ملابسة دون إعلان براءته ، ألا ترى إلى يوسف عليه السلام حين جاءه الرسول ليخرجه من السجن ، حيث قال الملك : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾

يوسف: ٥٠

مع أنه عليه السلام أخذ بالأسباب ، وقد قال للذى ظن أنه ناج منهما (من صاحبيه) : اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبس فى السجن بضع سنين

ولا وجه لما يذكره مَنْ لا دراية له ، ولا علم عنده بأنه لبث فى السجن بضع سنين ؛ لأنه قال لعبد مثله : اذكرنى عند ربك ، ولم يقل : يا رب

فهذا كلام يهيج إحساس العوام ، ويلهب مشاعرهم ، ويجعلهم يهتفون ويقولون : الله أكبر ، وهو عند الله عظيم

والدليل لقراءته كلام خال من الأدلة العلمية : أن الله ﷻ قال : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) ، وما قال : (فأنساه الله) وقد قال الله – تعالى – فى آية البقرة : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾ البقرة: ١٠٦

فقال: (أَوْ نُنسِهَا) ولو أن الأمر كان كذلك لقال الله ﷻ : (فأنساه الله ذكر ربه)

إنما لبث ما لبث ابتلاء نجح فيه ، وفاز ، كما فاز من قبل إذْ عرضت عليه الفتنة مفصلة عليه ، فقال : معاذ الله

وقد كان داعية إلى الله ﷻ فى السجن

- ومنها جواز أنْ يسأل المرء الولاية إنْ كان أهلاً لها ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ يوسف: ٥٥
- ومنها تحقق وعد الله ﷻ حيث قال :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يوسف: ١٥

- ومنها أن المتوكل على الله حقاً هو الذى وعد لا يخلفه عن إنجاز وعده إلا الموت ، ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ يوسف: ٦٦
- ومنها أن المحتال يجب ألا يكشف حيلته ، ألا ترى إلى قوله تعالى :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ يوسف: ٧٦

- ومنها عدم اليأس من روح الله ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يوسف: ٦٧
- ومنها عدم الاستعراض أمام العائن ، بدليل قوله : (لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ)

- ومنها أن التوكل معناه الإنجاز ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ يوسف: ٦٧ - ٦٨

فالدخول دليل التوكل ، وهو إنجاز ، وكذلك قول الله – تعالى – فى آية آل عمران : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩

فما عسى أن يكون بعد المشاورة ، والعزم والإنجاز لكن كثيراً من الناس مع الأسف يشاور ، وربما يعزم على فعل شىء ، لكنه لا يفعل شيئاً ، بعد تلك المشاورة ، وبعد العزم ، وعقد النية على عمل شىء نرى بعد ذلك قعوداً وتخلفاً ، ولا نرى إنجازاً ، ومع الأسى والأسف يدعى جميع الناس أنهم على الله متوكلون ولو عرف الناس أنّ التوكل على الله معناه الإنجاز لتوقف كثير من الناس عن إطلاق معنى التوكل ذهاباً وإياباً وفى جميع الأحوال ، وعلى كل إنسان

• ومنها أن توهم الإحسان لا يجدى مع مَنْ يعرف شرع الله ﷻ فلا يغر بمدح ، فقد قال إخوة يوسف ﵇ له : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾ يوسف: ٧٨

فلما كان منه إلا أن قال : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ ﴾ يوسف: ٧٩

• ومنها أنه لابد من شيء عزيز فى حياة المرء ، لا يتنازل عنه أبداً ، ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ ﴾ يوسف: ٨٠

أى لا فائدة من نحو قولهم : ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾ يوسف: ٧٨

ولا بد أن ييأس طالب الرشوة من الموظف المؤمن ، فلا فائدة فى أن يلين ، أو أن يخضع ، أو أنْ يرى الأكثر يجرى ريقه عليه ، ويسيل لعابه بين يديه ، ولابد أن ييأس طالب الحرام من فتاة مؤمنة ، لا تغريها أموال الدنيا ، فالحلال أيسر لها ، وله ، ولو أن هذا قد توفر لما رأينا كل هذا الفساد

ومنها أن مقتضى الأخوة ألا ييأس أخ ما دام له أخ فى الوجود ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ ﴾ يوسف: ٦٩

• ومنها أن المحب يشم رائحة حبيبه من مسافات بعيدة

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ ﴾ يوسف: ٩٤

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – أن إبراهيم ﵇ زار ولده إسماعيل ﵇ مرتين ، وأنه قال لزوجته الأولى : هل زارنا اليوم من أحد ؟ قالت : نعم ، شيخ كبير ، صفته كذا وكذا ، قال : هل أوصاك بشيء قالت : نعم ، يقول لك : غير عتبة بابك ؛ فقال ذلك أبى ، وأنت العتبة ، وطلقها

وذلك لأن خليل الله إبراهيم ﵇ أوصاها بتلك الوصية ؛ لأنها ذمت حالهم ، ولم تحمد الله ، وحين زاره فى الثانية وجد امرأته الجديدة فسألها عنه ، فقالت : إنه فى عمله ، فقال : كيف حالكما ؟ فقالت : الحمد لله ، نحن فى أحسن حال

فأوصاها أنْ تقول له : لقد استقامت عتبة بابك

فلما عاد إسماعيل من عمله سألها : هل زارنا اليوم من أحد

قالت : زارنا اليوم شيخ كبير ، صفته كذا وكذا ، قال : هل أوصاك بشيء ؛

قالت : نعم ، يقول لك : قد استقامت عتبة بابك ؛

فقال : ذلك أبي ، وأنت العتبة ، وبارك الله فيك

والشاهد كما ذكر بن حجر في فتح الباري : أن إسماعيل عليه السلام حين سأل في المرتين زوجتيه : هل زارنا اليوم من أحد شمَّ رائحة أبيه

فإسماعيل عليه السلام شم رائحة أبيه بعد أن انصرف ، ويعقوب عليه السلام شم رائحة يوسف حين فصلت العير من مصر ،

ولاشك أن أحداً لا يشم رائحة أحد هذه الأيام حبيباً كان أو غير حبيب ، لا بسبب تلوث الأجواء ، وعوادم السيارات ، وغيرها ، وإنما لتلوث العواطف ، وانحراف المشاعر ، ولو صفت المشاعر ، واستقام الوجدان ،

- ومنها أن الإنسان الفطن المحب هو الذي يتحدث عن المسرة لا المساءة ،

فقد ذكر يوسف عليه السلام لأبيه خروجه من السجن ، لا دخوله فيه ، قال : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ يوسف: ١٠٠

وقد شاع حديث السوء لا الحسن في مجالس الأحبة ، برغم توفر مناحي الحسن التي تصلح أن تكون سمراً جميلاً ، وحديثاً يثير البهجة والسعادة في النفوس ،

ألا ترى إلى ذلك الرجل الذي سافر إلى بلد بعيد ، واستقامت له الظروف من بعد شيء من المعاناة ، وحصل على أموال كثيرة ، وعاد إلى أهله بالهدايا ، والتحف ؛يخبرهم حين عودته عما لقي من محن وظروف سيئة ، وألام ، ومآس ، فقد بات في العراء ، وعاني العنت من كفيله الأول ، الذي زج به في السجن ، وفعل به الأفاعيل ، وكان ينام على الطوب أياماً ،ويحتضن الجوع في الليالي الطالحة الشديدة البرد ، والسواد ، وتنكر له رفاقه ، وكان كلما قال لأحد من أهل وطنه :أنا من بلدك ، أنا كذا ،أعطاه أذناً لا تسمع ، فقال كما قال كعب :

وقالَ كُلُّ خليلٍ كنتُ آمُلُهُ
لا أُلْهِيَنَّكَ إني عنكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبيلِي لا أبالَكُمْ،
فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعولُ

حتى رأى ذات ليلة في منامه والده – رحمه الله – جاء راكبا على جواد أبيض ، ويرتدي ثوباً أخضر ، وعليه عمامة حمراء ، كأنه الشفق في ليلة صافية ، وناداه ،

وأخذ بيده ، وقام من نومه على صدى المؤذن ، يقول : حى على الفلاح ، الصلاة خير من النوم ، فهب من نومه ، وهو يقول : اللهم اجعله خيراً ، وصلى الفجر فى جماعة ، وقبيل أن يخرج من المسجد أحس بيد حانية تنعطف على كتفه ، إنه كفيله الجديد الذى غير كفالته عليه ، وأمنه ، وأعطاه فرصة لإبداعه ، فكان ما كان من خير

وقبل أن يقص الرؤيا ، ويتحدث عن فيوضات رحمة الله – تعالى – به كان أهله الذين استمعوا إليه قد ذرفت أعينهم الدمع ، وأنساهم حديث الأحزان حديث الأفراح ، وليس هذا من الفطن فى شىء ، ومن الدين ، الذى يدعو إلى المسرة وإلى طيب حياتها

- ومنها أن الإنسان العاقل المعتبر بالذكر الحكيم يسأل الله الخروج من الدنيا بعد أن يسأله أن يدخله فيها ، أى على عكس الواقع ، فما قابلت أحداً إلّا قال لى : أسأل الله أن يخرجنا منها على خير

وأقول دائماً لمن يسألنى هذا السؤال : بل أسأل الله لى ولك أن يدخلنا فيها (أى الدنيا) على خير أولاً ، ثم بعد ذلك نسأله أنْ يخرجنا منها ، بدليل قول الله – تعالى -: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ١٠١

أن آتاه الله الملك ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، ونحن لابد أن نتخذ العبرة من ذلك ؛ فنسأل الله – تعالى – أن يخرجنا منها على خير مسلمين بعد أن نؤدى رسالتنا ، ونحرر أرضنا ، ونسترد أقصانا المبارك ، ونرفع راية الدين ، ونعلى من قيمة المسلين

وقد جاء نعى رسول الله ﷺ من عليا السماء بقول الله – تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ النصر: ١ – ٣

وما قال ﷺ : بل الرفيق الأعلى إلا بعد أن جاءه بنصر الله والفتح ، وأنزل الله ﷻ قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣

الأمثال فى القرآن الكريم

والله ﷻ يقـــول : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥

والتذكر هو الغاية الأساس من الاعتبار ،

والعاقل يعتبر بالمثل ، الذى يزيد المعنى إيضاحاً ، والأمثال فى الكتاب العزيز متنوعة ، وجميع قصص السابقين من الأمثال ؛ بدليل قول الله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ النور: ٣٤

فقول الله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ النور: ٣٤

وقد جاء ذلك صراحة فى نحو قـول الله – تعـالى – : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الكهف: ٣٢ – ٣٣

حيث كفر صاحب الجنتين ، وقال : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الكهف: ٣٦

مع أنه وقد وعظ من صاحبه الذى كـان يحـاوره بـأن يقـول إذا دخـل جنتـه : ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، لكنه لم يقل ، وطغى ، وتكبر على صاحبه ، فقال : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً

وكانت عاقبته أن أحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيهـا وهى خاوية على عروشها ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحـداً ، قـال الله ﷻ : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الكهف: ٤٣

وبمثل ذلك قال فى قارون الذى كان من قوم موسى ، وآتاه الله من الكنـوز مـا إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، جحد قارون ، وقال وقد نصح فـأعرض فقال كما ذكر القرآن الكريم : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ القصص: ٧٨

وكانت العاقبة أن خسف الله به وبداره الأرض ، وقـال الله : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ القصص: ٨١

وقـال الله ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ سبأ: ١٥ – ١٧

ولعلك فى قصة سبأ تقف عند قول الله – تعالى – : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ سبأ: ١٥

وما أسهل هذا التكليف ، عند مَنْ وفقه الله – تعالى – أن يأكل ويشكر ، جاء فى الحديث الشريف : (إن الله يحب العبد أن يأكل اللقمة ويشكره عليها ، ويشرب الشربة ويشكره عليها)

لكن كما قال الله فى الصبر والصلاة : وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين ، كذلك إنها لكبيرة إلا على المعتبرين ، الذين يعتبرون بضرب الأمثال القرآنية التى قال الله فيها : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٣

أى أن الذى يعتبر من ضرب هذا المثل وغيره يأكل ويشرب ؛ وذلك حتى لا تذهب النعمة ، وتتحول ،

والإنسان ضعيف ، لا يقوى على العذاب ،

وقد قال الله – تعالى – كذلك العذاب فى قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون

، فأصبحت كالصريم ، أى تقطع الليل المظلم لم تبق فيها جنة من عنب فضلاً من عنقود ، وقال الله ﷻ : ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ﴾ القلم: ٣٣

وتلك سنة الله – تعالى – فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، أى مَنْ شكر زاده الله ﷻ ومن كفر ، أى ستر نعمة الله – تعالى – وجحدها فقد عرضها بنفسه للزوال

والله ﷻ يقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ الرعد: ١١

ونحن نعلم إذْ نتعرف على الله ﷻ أن الله يريد أن يزيد ذا النعمة من فضله ، وأن يكشف الضر عن المتضررين ، والدليل على ذلك قوله الله – تعالى – : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ إبراهيم: ٧

وقوله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ الأنعام: ٤٢ – ٤٣

أى أن السبيل إلى زيادة النعمة شكر الله – تعالى – عليها ، والسبيل إلى رفع النقمة والضر التضرع ، فليعتبر مَنْ أراد زيادة النعم ، ومن أراد كشف الضرر ، فمن أراد زيادة شكر ، ومن أراد رفع الضرر تضرع .

والله ﷻ كما يسوق لنا هذه الأمثال التى ساءت فيها العاقبة يذكر لنا كذلك الأمثال التى حسنت فيها العاقبة

ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا (٤١) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (٤٨) فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (٤٩) وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا (٥٠) ﴾

مريم: ٤١ – ٥٠

أى لما اعتزلهم إبراهيم – عليه لسلام – أباه وقومه وما يعبدون من دون الله وهب الله – تعالى – له إسحاق ويعقوب وكلا جعل نبيا ، ووهب لهم من رحمته ، أى من هبات الحياة الدنيا ، وحسناتها

ومن الأمثال السيئة العاقبة التى ضربها الله ﷻ لكى يعتبر بها الذين يتبعون صدقاتهم منا وأذى ، وهم بلا شك ما تصدقوا إلّا عن رياء ، قول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٦٤) ﴾ البقرة: ٢٦٤

والصفوان : الحجر الأملس الناعم

أى أن مثل الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ، واليوم الآخر مثل ذلك الحجر الناعم الذى عليه تراب ، فأصابه وابل أى مطر شديد ، فتركه صلداً: لا شيء عليه ، أى لم يبق لهؤلاء من صدقاتهم شيء ، ضيعوها بالرياء

ويلى ذلك المثل مثل حسن عاقبته ، وهو قول الله – تعالى – : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٥

فالطل هنا سبب فى إتيان أكل الجنة ضعفين؛ لأنه أصاب أرضاً خصبة صالحة للزراعة والثمار ، وهى جنة عالية (بربوة) فإن لم يصيبها وابل فطل ، أى مطر خفيف ، فهى لا تحرم أن تؤتى

وكأنها مقارنة ، بين مَنْ ينفق رياء ، ومن ينفق ابتغاء وجه الله ، فالأول صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلداً ، والثانى جنة عالية ، أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، أى أنّ الوابل الواحد ينزل على مكان ، فيتركه أنظف من الصينى بعد غسيله ، وينزل على مكان آخر ، فيسبب الخير الكثير ، والفرق واضح

ثم يأتى مثال ثالث ، حيث يقول تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٦

أى أن مثل الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس مثل رجل بلغ من الكبر عتيا ، وله جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات ، وله ذرية ضعفاء ، فأصاب تلك الجنة إعصار فيه نار ؛فاحترقت ، وليست

الذرية بقادرة على أن تعيد بناءها وزراعتها من جديد ، وليست بقادرة على السعى من أجل تعويض أباهم وإياهم ما فاته ، فإحساسه بالحسرة لا تطير لها ، وذلك إحساس صاحب الصدقة الذى أخرجها ، وهى عزيزة ، وليس له نصيب من أثرها عليه فى الآخرة ، حيث يكون المتصدق الحق فى ظل صدقته حتى يحكم الله بين العباد ،

وفى هذا المثل الأخير خطاب للوجدان ، والاعتبار كما ذكرت لا يكون إلّا عند أولئك الذين سلم وجدانهم من الانحراف ، فهم أسوياء فى مشاعرهم كما أنهم أسوياء فى عقولهم ، وأفكارهم ، ومنهج حياتهم

ومن الأمثال التى جاء التركيز فيها على الوجدان قول الله ﷻ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الحجرات: ١٢

فجعل الذى يغتاب أخاه كأنه يأكل لحمه ميتاً ، وسوى الشعور يكره ذلك ، فكما أنه يكرهه عليه أن يكره اغتيابه ؛ لأنه معادل له ومساويه

وانظر إلى درس العبرة فى التمثيل الذى قام به غراب يبحث فى الأرض ليرى ابن آدم كيف يوارى سوأة أخيه ،

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ المائدة: ٣١

لاشك أن هذا التمثيل يمس الوجدان ؛ لأن الإنسان يأنف أن يتفوق عليه مثله من الإنسان فضلاً عن أن يتفوق عليه طائر أو حيوان ،

وكذلك الآية بعدها ، حيث يقول الله – تعالى – : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ المائدة: ٣٢

فالشعور الذى يملأ صدر الإنسان لا نظير له حين يعلم أنه بإحياء نفس واحدة كأنما أحيا الناس جميعاً ، وأنه بإماتتها كأنه أمات الناس جميعاً

فإن مخاطبة الشعور بهذا المثل توقظ فى القلوب معنى الحياة ، وتبعث فيها الرغبة على تقديم أسباب الحياة ، لا تقديم أسباب الموت ، أى تقديم أسباب الحياة ، ولو لنفس واحدة ، لا أن يسعى أحدٌ فى قتل أحد ماديا ولا معنويا ،

الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره

فمن الذى يعتبر بذلك إلا صحيح الشعور سليم القلب ، الذى يشعر بنبضة غامرة يفيض بها قلبه ، وتنبض بها ضلوعه ، فإذا سواعده تمتد بأسباب الحياة زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وعونا للمحتاج ، وإطعاما للجائع ، وريا للعطشان ، وكساء للعارى ، وعيادة للمريض ، وبتجهيز غاز يدفع الأعداء عن الأركان والحرمات ، وتيسيراً لطلاب العلم رحلتهم فى طلبه ، حيث إنّ العلم إحياء لطالبه ، ولأسرته ، ولمحبته ، وأمته ،

وكذلك من الأمثال التى تخاطب الوجدان قول الله ﷻ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٥ – ١٧٧

والإنسان يكره أن يكون مثل الكلب ، ومن قال له : يا كلب ثار فيه ، وأقام الدنيا ولم يقعدها كما يقال ، ولذا قال ربنا – تعالى – ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٦

ومعروف أن (ساء) مضروب فى القبح ، والسوء ، لا الحسن ،

ومن سره ألا يكون مثله كمثل الكلب ، نأى بقلبه وعقله عن المذاهب الفاسدة ، والمعتقدات الباطلة ، واتبع رضوان الله ، وصدّق بآياته ، وكذلك قوله – تعالى – : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ إبراهيم: ١٨

وما أصعب ألا يقدر الإنسان على شىء مما كسب كالذى أحيط بثمره ، والذى حجز على أمواله جميعاً، والذى ضاعت كل ثروته ، أو اغتصبت ، فهؤلاء يملك منها شيئاً، أى وجدان ذلك الذى يتحمله الإنسان ، أو يعيش به ، وهو ينظر إلى كسبه ، وقد ضاع منه

انظر فى أيسر مثال إلى حال رجل أنجب خمسة ذكور ، صاروا من بعد شقاء وجهد ومعاناة رجالاً، وتزوجوا ، وعاشوا فى رغد من العيش ، وافتقر أبوهم ، فلم يسأل عنه واحد منهم بكوب ماء ، بم يشعر وحده ، حيث يتفكر

فى زرع زرعه حتى استوى على سوقه ، وجاء موعد الحصاد فلم يجد فيه جنة ولا ثمرة ، وبم يشعر إذا رأى أحدهم ، وهو يمر بسيارته فيعفر بترابها وجهه وهو يراه ، فلا يميل لكى يركبه إلى جواره ،

وكذلك الذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فهل يبقى من ذلك الرماد شىء !

الأمر الذى يجعل المؤمن فى فمه سعادته بإيمانه ، ففرق كبير بين رجل تصدق بتمرة ، فيأخذها الله بيمينه ، وينميها له ، حتى تأتى يوم القيامة ، وقد صارت مثل جبل أحد ، وبين مَنْ ينفق مثل جبل أحد ، ثم يأتى يوم القيامة فلا ينتفع بمقدار رملة منه!

فالأول يفرح أيما فرح ، والثانى تقتله الحسرة ألوف المرات ، وما من سبيل أمامه لكى يستعيد نفسه التى خسرها ، ويعمل صالحاً غير الذى كان يعمل ، ولذا قال الله ﷻ : (ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ)

وكذلك قول الله – تعالى – ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ النحل: ١١٢ – ١١٣

منتهى الإحساس بالألم أن يتحول الغنى المنعم إلى فقير بائس ، يلبس الجوع والخوف بعد أن كان يرتدى ثوب الشبع والأمن ، وكانت يده عليا بما يعطى ؛ فصارت سفلى بما يأخذ

والله ﷻ لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، فقد كانت هذه القرية – مكة أو غيرها – آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فتحولت من أمن إلى خوف ، ومن رزق واسع إلى جوع – هو بئس الضجيج – شنيع ، فكيف يكون الوجدان عندئذ !

أى : كيف يستطيع السوى من الناس ذلك ، فإن قال لك قائل : أنا أقتل نفسى عندئذ !

فقل له : لن تستطيع ؛ لأن الله – تعالى – يقول : ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ إبراهيم: ١٧

وهكذا تتكرر الأمثال التى تخاطب الوجدان موضع الاعتبار فى آيات الذكر الحكيم كما تتكرر الأمثال التى تخاطب العقل أساس التكليف والاعتبار ، كما فى تصوير الدنيا جميعاً بماء أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح

وكما فى قوله – تعالى – : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الإسراء: ٦٤

وكما فى قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ الحج: ٢

آيات القدرة الإلهية فى الكون

ومن مواضع العبرة فى الكتاب العزيز آيات القدرة الإلهية فى الكون خلقا وإبداعاً، ومنا اختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، قال الله ﷻ : ﴿ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤

ومنها قول الله – تعالى – : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١ ﴾ الإسراء: ١

والذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أى فى جزء من الليل قادر على أن ييسر الأمور ، ويشرح الصدور

وقال زكريا عليه السلام حين بشره الله بيحيى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ ﴾ مريم: ٨

قال الله ﷻ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ ﴾ مريم: ٩

أى أن الله ﷻ الذى خلقك من قبل ولم تك شيئاً قادر على أن يهب لك غلاماً ، وامرأتك عاقر ، وأنت بالغ من الكبر عتيا

وكذلك قالت مريم – عليها السلام – : ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ ﴾ مريم: ٢٠

فقال الملك : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٢١ ﴾ مريم: ٢١

وقد قال الله ﷻ للنار التى تكلفها الكفرة من أجل إحراق إبراهيم عليه السلام :

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾ الأنبياء: ٦٩

فكانت برداً وسلاماً عليه ، أليس ذلك بقادر على أن يقول لكل معضلاتنا : اذهبى فتذهب

فإن قال أحد : آمين ، فالجواب : أنه لابد مع الدعاء من عمل ، وإخلاص الدين لله ﷻ

وما أكثر الآيات التى تخاطب العقل ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ الروم: ٢٧

أى أن الإعادة أهون من الابتداء عند العقلاء ، وقد قال الله ﷻ فى خاتمة سورة يس : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يس: ٧٨ – ٨٣

الأنعــــام

والأنعام موضع عبرة ، قال الله – تعالى – فى آية النحـل (٦٦) : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ النحل: ٦٦

هذا منحى من مناحى الاعتبار فى الأنعام ، وهو أن الله ﷻ يسقينا مما فى بطونه من بين الفرث والدم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين ، لا لون له يكرهه الشارب ، بل هو مثال فى البياض الجميل ، ورد فى صفة ماء الكوثر أنه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وطعمه جميل ، وفائدته عظيمة

وهو الوحيد من الأطعمة الذى كان رسول الله ﷺ يقول فيه : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، وكان يقول فى غيره : وارزقنا خيراً منه .

وقد عرض عليه ﷺ ليلة الإسراء خمر وماء ولبن ؛ فاختار اللبن : فقال له جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة ،

وثمرة الاعتبار هنا ثمرة عظيمة دانية التطوف ، حيث إن الذى يعتبر بذلك يؤمن بقدرة الله ﷻ وكلما ازداد المرء إيمانا بقدرة ربه ﷻ ازداد إقبالاً على الحياة وهو غير متوتر أو مرتاب ، وفرق كبير بين أن تنطلق إلى غايتك ، وأنت على

يقين أن الله معك ، وقدرته قدرة القدر ، وهو على ما يشاء قدير ، وبين أن تنطلق وأنت متردد ،

ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٥

إن الذين قالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل وهم على يقين أن الله – تعالى – كافيهم وناصرهم انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مجرد مس

ثم تأمل قول الله – سبحانه – : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٥

أى أن أولياء الشيطان صاروا مع الشيطان أمة مخوّفة ، تقول للمسلم : لا طاقة لك بكذا ، ولا قدرة لك على كذا ، ولن تستطيع مواجهة كذا ، ولا محاربة كذا ، وكم نجح هؤلاء فى فت عضد كثير من الناس حتى أنسوهم

قدرة الله ﷻ فعادوا إلى مواطن الاستسلام ، والخضوع ، وشعارهم (حسبنا الله) على غير معناها ، فلو أحسنوا فهم معناها لقالوا وهم ماضون عازمون على الجهاد الذى خرجوا من أجله

فكم من الناس ترك حقه ، وسحب أوراق قضيته من قاعات المحاكم بحجة أنه لا قدرة له على أن يكمل مشوار التقاضى ضد ظالم ، عنده من المال الكثير ، وعنده أعوان من البلطجية ، والمحامين الكبار المعروفين بالتحايل على القانون ، ويتقاضون فى ذلك الأموال المرهقة التى لا طاقة له بعشرها

وكأن الدنيا صراع بين قوى بشرية ، والنصر فيها للأقوى بأى طريق ،

وكأننا لا نقرأ قول الله – سبحانه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٤٩

وقوله – عز من قائل – : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٣

وأنا أود أن أقول هنا كلمة من الأهمية بمكان ، وهى أنّ الذى يعيش كرْباً ما ، أو همّاً ما ، أو يعانى من مشكلة ما إذا رزق الاعتبار بهذه الآية من سورة النحل

قال : إن الذى سقانا مما فى بطون الأنعام من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين لقادر على أن ينفس كربى ، ويفرج همى ، ويجعل لى مخرجاً

وأذكر فى هذا السياق أن إبراهيم عليه السلام حين طلب الفرعون الطاغوت زوجته سارة قال لها : إذا سألك عنى ، فقولى إنى أخوك ، فليس فى الأرض مؤمن إلا أنا وأنت ؛ فقالت له : إن الذى نجىّ بدنا من النار لقادر على أن ينجى عرضك من العار

وقد توسلت إلى الله ﷿ بإخلاصها له الدين ، وبإحصان فرجها إلا على زوجها ؛ فنجاها الله ﷿ من شره ، وحين أصابه ما أصابه سألت ربها ﷿ ألّا يقضى عليه حتى لا يقال إنها قتلته ، وقد أجاب الله دعاءها مرة أخرى ، والله ﷿ واسع : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي (٢٥) وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي (٢٦) وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي (٢٨) وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (٣١) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (٣٢) كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا (٣٣) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا (٣٥) قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ (٣٧) ﴾ طه: ٢٥ – ٣٧

وكان من دعاء النبى ﷺ أنه كان يقول : (اللهم مجرى السحاب هازم الأحزاب ....)

أى يا مَنْ أجريت السحاب ، وهزمت الأحزاب ، أسألك كذا وكذا

وهكذا يقول المعتبر المتدبر : اللهم يا مَنْ جعلت لنا فى الأنعام عبرة سقيتنا مما فى بطونه من بين فرث ودم لنا خالصاً سائغاً للشاربين ، فرج همى ، ونفس كربى ، وارزقنى كذا وكذا

وأنا أقول : ينبغى للمرء أن يذكر نفسه بهذه العبارة ، وأن يقولها مؤمناً بها ، فيقول لنفسه : (لست وحدك ، وإنما لك رب يدبر لك أمرك)

وقد قال الله ﷿ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ التوبة: ٤٠

وقد قال الله – تعالى – فى الرجل المؤمن من آل فرعون حين قال :

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (٤٤) ﴾ غافر: ٤٤

: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ﴾ غافر: ٤٥

ويقول ﷻ فى آيات سورة الشعراء : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ ﴾ الشعراء: ٦١ – ٦٧

فانظر إلى هذه الآيات من تلك السورة المباركة ، حيث تراءى الجمعان ، موسى عليه السلام ومن معه ، وفرعون وجنوده الذين كانوا يطاردونهم ، أى انكشفوا لهم ، وقد قال أصحاب موسى عليه السلام :

(إنا لمدركون) ؛ لأن البحر كان أمامهم ، والعدو كان وراءهم ، فلا سبيل إلى الفرار منهم ، ومع ذلك قال موسى عليه السلام : كلا ، أى : لا

وعلل لذلك النفى بأن معه ربه سيهديه ، وقد هداه من حيث لا يحتسب من معه ؛ فإن أحداً لا يحتسب أن البحر سيصبح طريقاً يبساً ، لكنه بإرادة الله كان

، وقد أوحى الله – تعالى – إلى موسى أن اضرب البحر بعصاك ؛ فضربه فصار قسمين كل قسم كالجبل العظيم ، وانطلق موسى عليه السلام ومن معه فى معية الله ناجين ، وأتبعهم فرعون وجنوده فأغرقهم الله أجمعين ،

وما أكثر الأمثلة على نصر الله وتأييده لعباده المؤمنين ، والقرآن الكريم حافل بتلك الآيات المضيئة التى ترسل النور ، وتبعث الأمل فى الطريق يقول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾ محمد: ٧

ويقول تعالى :

﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣

عاقبة المكر السيء

ومن آيات الاعتبار فى الذكر الحكيم أن عاقبة المكر السيء سوء بأهله ، قال الله – تعالى –: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ فاطر: ٤٣

وفى آيات سورة النمل يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ النمل: ٤٥ – ٥٣

الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره

لو كان الظالم من أهل الاعتبار ، ووقف عند نهاية الظالمين

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النمل: ٥١ – ٥٢

والآية : أى العبرة ، ولكن جاء التعبير بهما شعاراً بأنها عبرة عظيمة ، وما أعظمها ، حيث أهلك الله الظالمين وهزمهم أجمعين

لو كان الظالم من أهل الاعتبار لأعاد النظر مرة ومرتين وعشرات المرات ، وارتدع ، ورد الظلم إلى أهلها قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، لو نظر بعين الاعتبار لما استمرأ أكل لقمة من حرام ، ولا شرب جرعة من خمر ، ولا غصب شبر من أرض ، ولا إراقة قطرة من دماء ، فإن عاقبة الظلم وخيمة ، وقد تكون فى الدنيا بما رأينا من تدمير الله الظالمين ، وقطع دابرهم ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النمل: ٥٢

وقال الله – تعالى –: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنعام: ٤٥

والذى تحدثه نفسه بأن يظلم لو كان من أهل الاعتبار لقال لها : ارجعى يا نفسى عن الظلم ، واحذرى التمادى فيه ؛ فقد بنيت بيتاً ، وإنى أرى نهايتى أنه سوف يخلو من بعدى ، تهب فيه الرياح ؛ وتصفق أبوابه معها ، وأنا فى التراب ، لست فقط طعام الدود ، وفى ضيق اللحود ، وإنما فى حفرة من حفر النار

هذا معنى الاعتبار ، وقد قال الله فى الظالمين يوم الدين : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ يونس: ٥٤

ومنهج الدين يبين لنا بوضوح أن الذين يظلمون الناس هم فى الحقيقة لا يظلمون إلا أنفسهم ، وذلك لأن العقاب شديد ، والعاقبة سيئة ، فالمظلوم منصور بإذن الله ، ولكن الظالمين فى عذاب شديد

قال الله – تعالى – : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ الحج: ٣٩

فالذين يرون الظالم قادراً ، ومسيطراً ومستمتعاً بآثار ظلمه أموالاً طائلة ، وعقارات وسيارات ، وربما طيارات خاصة ، وفنادق منجمة بأعلى رقم من أرقام الفنادق ، وتنزهات فى بلاد الله الواسعة لا يرون إلا ظاهراً عن قليل سوف يفنى ، ويصبح ظللاً بعد عين ، وذكرى بعد وجود ، وأن مردهم إلى الله ، وهو محاسبهم ، ولن تغنى عنهم هذه الأموال من عذاب الله شيئاً.

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ المعارج: ١١ – ١٨

لو نظرنا ونظر الظالم إلى العاقبة لما رأى ما جمع عن طريق الظلم والفساد إلّا وبالاً عليه ، وطعاماً سوف يحترق به

الغلـــــول

والغلول : أخذ شىء ليس من حقك أن تأخذه ، وهو آية من آيات العبرة فى الكتاب والسنة ، قال الله – تعالى فى آية آل عمران : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾ آل عمران: ١٦١

وقد بيّن النبى ﷺ (ما) هذه ، وهى من المبهمات ،بأن مَنْ أخذ شاة جاءته شاة من نار ، ومن أخذ بقرة جاءته بقرة من نار ، ومن أخذ بعيراً (جملاً) جاءه بعير من نار ، ومن أخذ خفاً (حذاء) جاءه خفا من نار ، ومن أخذ شملة (ثيابا) جاءته شملة من نار ، بل مَنْ أخذ خيطاً أو إبرة جاءه خيطاً وجاءته إبرة من نار

وقد قال ﷺ : أدوا الخائط والمخيط ، وبين معنى الغلول على النحو السابق ، فقام رجل من الحضور ، وكان بلا شك من أهل الاعتبار ، وصارح النبى ﷺ بأنه أخذ بعض قش ليعمله برذعة (بردعة) لحماره ، فقال له النبى ﷺ : أما نصيبى منه فهو لك

فقال : لا حاجة لى فيه يا رسول الله ، ورده إلى الغنائم التى أخذه منها قبل أن توزع

وكان للنبى ﷺ خادم اسمه (مِدعم) رآه الناس شهيداً، حيث أصابه حجر من قبل اليهود ؛ فقضى عليه ، وجاءوا يهنئون رسول الله ﷺ باستشهاده ، فقال ﷺ : لكننى أراه فى النار ، وتعجب الناس ، كيف قال ذلك منه ، وقد علم أنهم رأوه شهيداً، وأزال هذا التعجب ﷺ حين قال : بسبب الشملة التى أخذها ، أى بسبب شملة أخذها من الغنائم قبل أن توزع

لما كان الناس من أهل الاعتبار أخذ كلٌّ يأتى بما أخذ ، ويضعه أمام النبى ﷺ فكان كلما وضع رجل خفا قال ﷺ : خف من نار ، ومن وضع شملة قال ﷺ : شملة من نار

ولو كنا من أهل الاعتبار ، وجئنا بما أخذنا ، لتغير وجه الحياة ، ولتجمعت ثروات تفوق ميزانية الدولة سنوات طويلة ، فإن كثيراً من الناس ، يوزعون على أنفسهم الأموال العامة قبل أن توزع وينقلون إلى بيوتهم من متاع مؤسساتهم ، وأثاثها ما يشهد به الواقع ، إذا زرت أحدهم فى بيته ، فإن كان بينك وبينه شىء من مودة ، وقلت له : ما هذا ؟

أجابك صراحة بقوله : (جحا أولى بلحم ثوره) ثم ارتقى فى الأسلوب ، فقال لك : ألا ترى إلى هذا الراتب الضئيل ، هل يكفى لبناء أسرة ، وإنفاق على عددها المكون من كذا وكذا !

يستحل الحرام بحجة أن راتبه ضعيف ، وإذا كانت له فرصة لمخاطبة الناس من خلال برنامج تلفازى قال : إننى رجل شريف ، أعيش على راتب الدولة ، وهو دراهم معدودة

ولو أطلقت على كشوف الغنائم فى الدولة تجد أسماء كثيرة لم تشترك فى الجهاد ، ولها نصيب الأسد من تلك الغنائم ، أما الذين جاهدوا بحق فنصيبهم منها الفتات !

الفصل الثالث

المانع دون الاعتبار

المانع دون الاعتبار

عرفنا أن الذين يعتبرون هم أولو الألباب ، وهم أولو القلوب السليمة النابضة بالحياة ، والإحساس بالخشية ، وأولوا البصائر السليمة المبصرة ، وأرى أن المانع من الاعتبار أمران

الأول : فساد العقول

والثانى : فساد المشاعر

وأول ما يهمنى فى إفساد العقول الخمر ومشتقاتها وأخواتها من المخدرات بأنواعها ، ومن ثم قال العلماء: إن الخمر من أم الخبائث ، وقد روى العلماء أن رجلاً خيّر بين الزنا ، وقتل صبى ، وشرب خمر ، فرأى أن أهون الثلاثة أن يشرب الخمر ، فلما شربها زنى بالمرأة وقتل الصبى ؛ لأن العقل إذا خُمّر أى ستر لم يعد هناك من أمل فى أن يبصر شيئاً، أو يميز بين حسن وقبيح ، وبين حلال وحرام ؛ فأنى له أن يعتبر

ألا ترى إلى قول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ ﴾ المائدة: ٩٠ – ٩١

وقد انتشرت ثقافة المخدرات انتشاراً كبيراً ، وغلبت على الأفلام والمسلسلات ، وصارت المادة الرائجة الرابحة التى تروج هذه الأعمال يغرون بها

المشاهدين لا سيما الشباب ، الذين يلتفون حولها مشاهدين ، وينصرفون بعدها مقلدين محاكين

وشاع بين الناس أن الشباب بطبعه لابد أن يتناول المخدرات ، ويصادق النساء والبنات ، فهم يرون أن تلك المرحلة من حياته لابد أن تكون هكذا ، ثم يأتى من بعدها عمر جديد ، هو عمر التعقل والثبات ، والانصراف عن دواعى الهوى والطيش والجنون

وقدْ ذكرت فى كتابى (إقامة الدين بالشباب)

أن الشباب هم الذين يقيمون الدين حقاً ؛ لأن مرحلة ما قبل الشباب مرحلة طفولة ، وهى مرحلة إعداد وتدريب لا تكليف فيها ، وأن مرحلة ما بعد الشباب مرحلة أعذار ، حيث العلل والأمراض ، فمن الذى بوسعه وطاقته أن ينهض بإقامة الدين ، وإقامة الدين رسالة عظيمة ، ومعناها رفع رايته ، وإعلاء كلمته ، والنهوض بمبادئه ومقاصده عملاً لا قولاً ، وذكرت هناك أن شابا سألنى : إننى فى مرحلة الشباب ، والشباب طبعاً – كما تعرف – مرحلة خطايا ، والشاب لابد أن يقترف المنكرات، وأن يعمل السيئات ، وأننى أوقفته عند قوله (طبعا) وقلت هذا وهم ، والشباب كما ترى ويرى غيرك ، مما هو شائع بسبب الثقافة السوداء كما تقول ، لكن قال الله – تعالى – : ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝١٣ ﴾ الكهف: ١٣

وقال فيهم رسول الله ﷺ : (وشاب نشأ فى عبادة الله) أى من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله

وقد سمعت أكثر من رجل وامرأة من الآباء والأمهات يقولون : إن ابننا فى العشرين من عمره وهو شاب كسائر الشباب يعمل كذا وكذا ، وغداً يهديه الله ، ويعقل ، ويبتعد عن هذا كله

وسمعت والد عروس يقول لخطيب ابنته : يا بنى ، إنّى لا أكلمك عن تجاربك النسائية ، فأنت شاب ، ولك بلاشك أعذارك ، وكنت ذات يوم شاباً مثلك ، وفعلت أكثر مما فعلت أنت ، وإنما أكلمك عن شيء آخر ...

وهكذا ينظر الناس إلى الشباب ، وهكذا يرونه ، فترة مجون ، وخطايا ، وفترة ضياع للوقت ، والوقت أنفس ما يملك الإنسان ، وفترة ضياع للقوى ، وإهدارها فى العبث والفراغ ، ومن بعده تأتى مرحلة التعقل ، والبعد عن هذا كله ، أو بعضه ، وذلك كله من الخطأ ، والوهم ، والضلال

فالشباب كما قلت مرحلة قوة وبناء ، وتغيير لواقع الحياة السيء إلى واقع جميل نضر

فقد جاء التعبير بالفتوة وهى ماء الشباب فى قوة الله ﷻ : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٠

حيث قال لهم : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الأنبياء: ٥٧ – ٥٨

وحديث القرآن الكريم عن أصحاب الكهف حديث عن شباب نبيل ، موسوم بالعقل ، وحسن الفكرة ، والذين جاهدوا حول رسول الله ﷺ ، ورفعوا معه راية الدين كانوا من الشباب

أما الشباب الساقط الذى قيل فيه

إنَّ الشَّبَابَ وَالفَرَاغ وَالجِدَة
مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أى مَفْسَدَة

فلن يرفع راية للدين ، ولن يقدم عملاً عظيماً، ولن يعتبر ؛ لأنه بالخمر والمخدرات ، والضياع غير أهل للاعتبار ، حيث إن العقل الذى هو مناط التكليف – مناط الاعتبار ، والمرء إذا فسد عقله لا يكون أهلاً للاعتبار ، كما قيل فى الذى تناديه ولا يسمعك

لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادى

كذلك يمكن أن يقال :

لقد آثرت لو ناديت عقلا
فليس لفاقد العقل اعتبار

وكما يفسد العقل بالخمر يفسد كذلك بالمذاهب الباطلة ، والمعتقدات الخاطئة ، والموروثات السيئة ، ألا ترى إلى قول الله ﷻ فى الكافرين : ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ البقرة: ١٨

وذلك لأنهم آثروا العمى على الهدى ، وآثروا اتباع آبائهم فى عبادة الأوثان التى لا تغنى من الحق شيئاً فلم يعتبروا ، والدليل على ذلك أنّ هوداً ﵇ دعا قومه إلى الاعتبار بما حدث لقوم نوح ﵇ وأن الطوفان قد أخذهم ، حيث آثروا

الكفر على الإيمان ، فقال لهم : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ الأعراف: ٦٩

فماذا قالوا ؟

يقول الله ﷻ بعد هذه الآية من سورة الأعراف (٧٠) : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ الأعراف: ٧٠

فانظر إلى هذا الجواب هل ترى فيه أثراً للاعتبار ، أو أملاً فيه ؟

وكذلك قال نبى الله صالح عليه السلام لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ الأعراف: ٧٤ – ٧٩

فانظر كذلك هل ترى من أثر للاعتبار ، وهل ترى أملاً فيه !

إن نبى الله هوداً عليه السلام ذكر قومه بما كان من انتقام الله ﷻ من قوم نوح ، وهم حديثو عهد بهم ، وكذلك فعل نبى الله صالح عليه السلام ذكر قومه بما كان من نهاية قوم هود ، وهم حديثو عهد بهم أى أن هؤلاء وهؤلاء ذكروا بالأحداث القريب منهم لعلهم يعتبرون ، فيؤمنون ، فلا يصيبهم ما أصاب إخوانهم الكافرين ، ولكن هؤلاء وهؤلاء لم يعتبروا

وفى سورة هود وجدنا نبى الله شعيباً عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ هود: ٨٩ – ٩٥

فهل ترى فى جوابهم كذلك من أثر للاعتبار ، أو من أمل فيه !

لقد قالوا : ما نفقه كثيراً مما تقول ، مع أن ما قاله واضح وضوح الشمس فى كبد السماء ، تماماً كما ترى من حال السكران ، أو مقاله حين تخاطبه بأمر واضح جلى ، لا خفاء فيه ، ولا لبس ، لكنه لا ينفعه شيئاً مما تقول ؛ لأن العقل قد خمر ، وستر ، سترته الخمر ، فأنّى يفهم شيئاً!

وكذلك كل من أغرق فى المذاهب الباطلة ، فاستوطنت فى عقله ، وسيطرت على فكرة ، فهو لا يرى حقاً إلا فيها ، ولا خيراً إلا فى اتباعها

ولعلك إن راجعت ما قاله الكافرون الأولون من نحو قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ الأعراف: ٧٠

وجدت أن هذه العبارة ما زالت قائمة عند كثير من الناس الذين فقدوا الإحساس بالاعتبار ، يقول لك قائلهم :

(أعلى ما فى خيلك اركبه) ويقول : (افعل ما تريد)

بل إن السفيه منهم يقول لك ، وقد دعوته إلى الاعتبار :

- تريد أن تضربنى ، فاضربنى

- تريد أن تسجننى ، فاسجننى ؛ فأنا أحب السجن

- وإن كنت تريد قتلى ، فهذه رقبتى ، اقطعها ، أنا لا تهمنى الحياة ، ولا العيش ، ولا أخاف ، والحياة والموت عندى سواء ، بل إنّ الموت خيرٌ لى من الحياة ،

فهذا دليل على أنه ليس من أهل الاعتبار ، وقد قال الكافرون : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنفال: ٣٢

فهل تظن أن عاقلاً يعتبر ، وقد جاءه من نبأ الأقدمين والأحدثين ما جاء عن الحق اليقين بما يفيد هلاكهم ، وأن الذى أصابهم سوف يصيبه أن اتبع سبيلهم ، وسلك مسلكهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ هود: ٨٢ – ٨٣

وقد قال الله ﷻ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنفال: ٣٨

وسنة الأولين هلاك الكافرين المصرين على الكفر والجحود الذين يشاقون الله ورسوله من بعد ما تبين لهم الهدى ، ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب .

وكما أن سنة الله – تعالى – فى الكافرين الجاحدين المصرين على الكفر والشقاق هى الهلال والإبادة

فإن سنة القوانين إن فعّلت وطبقت حبس وإعدام ، وغيرهما من العقوبات لمن لا يعتبر ، والله ﷻ لا يريد ظلما للعالمين لذلك دعا إلى الاعتبار ، حتى لا يقع الحديث بما وقع فيه القديم فتكون العاقبة سواء

والله ﷻ يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء: ١٤٧

ونحن نتأسى بأسلوب القرآن الكريم ومنهجه تقول للذين لا يعتبرون ويتمادون فى البغى والضلال ، وارتكاب الجرائم : ما نفعل بعذابكم وحبسكم وإعدامكم إن اعتبرتم واستقمتم

ولكن هناك فرق كبير بين الآية والقول الذى هو على منوالها وهو أن الله ﷻ غنى عن العالمين ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ الشمس: ١١ – ١٥

ولكننا نزداد إرهاقا وخساراً بحبس قوى من شبابنا ، وإعدام رجال ونساء لنا ، فما أسعدنا باستقامة هؤلاء ، وربما يقدمون لأوطانهم من خير يحققونه لأنفسهم ، ولمن حولهم ، وما أشقانا بخسارتهم ، وفقدهم ، ومن ثم كان علينا أن نوقظ روح العبرة فى المجتمع بأنْ تحطم تلك الموانع التى تحول دون تحقق العبرة ، أى علينا أن نعنى بالعلم والعلماء ، والتعليم ، وتربية الأبناء ، وتنمية العقول ، وربما بها يزيدها تعقلاً ، وتفكراً ، وتنويراً

وعلى أجهزة الإعلام المختلفة دور عظيم فى إيقاظ تلك الروح من خلال ما تقدمه من برامج نافعة هادفة ، ومن أعمال فنية تبنى ولا تهدم ، وتكون مشوقة جذابة بوسائل أخرى غير العرى والمخدرات والإسفاف ، والإضحاك الغبى ، والاستخفاف بعقول الناس ، والسخرية والاستهزاء ، ومخاطبة الفطرة لا الغريزة ، والاهتمام بالموهوبين الحقيقيين لا الأدعياء التافهين ،

الاعتبار أهله ومواضعه وآثاره

ولابد من إعادة النظر فى أمر الكتاب الذى استغنى عنه بمشاهدة التلفاز والنت ، فإن أول ما نزل من الذكر الحكيم قول الله – تعالى – : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ١ – ٥

والقراءة لا تغنى عنها المشاهدة بحال من الأحوال ؛ فلها سرها ، وأثرها ، وللحواس جميعها نصيب منها ، وهى تقتضى التفكر ، والتدبر ، وإعادة النظر بإعادة المقروء بخلاف المشاهدة التى تمر مشهداً عابراً ، يلقى ما فيه ولا يتخلى وإن تخلى ، فقد ترك سموماً إن كان هدف باعثه ، ومرسلة غير طيب ، وغير هادف ، وغير نبيل ، وقد تمر عليك الكلمة فى مشهد من المشاهد فلا تسمعها ، فتقول لمن يجلس إلى جوارك ، ويشاركك المشاهدة : ماذا قيل ؟ فإذا به يقول لك : لم أسمعها أيضاً، فتمر عليك أو عليه ، وقد تحفظها على علاتها ، ويبدو لك معنى ما سمعت بخلاف المعنى الأصلي ؛ لأنك لم تسمع اللفظ على الوجه المراد

وأمّا فساد المشاعر فسببه الأساس غياب المعانى ، والتقليل من قيمتها ، وتوهم أن الحياة مادة أى مال ، وأنها الغالبة لا محالة ، ومن ثم صار كثير من الناس عبيداً للدراهم والدينار ، والنبى ﷺ يقول : (**تعس عبد الدينار والدرهم**) ، ويقول : (**تعس عبد القطيفة**)

رضي كثير من الناس أن يكونوا عبيداً للقطيفة ، وعبيداً للدينار ، والجنية ، والدرهم ، تذل من أجلهن الأعناق ، وتخضع، وتشترى بهن الذمم ، وتتغير بسببهن الأخلاق

والفقر سبب كل بلية ، وقد روى فى الصحيح عن سيدنا رسول الله ﷺ قوله : (**كادت الحاجة أن تكون كفراً**) وقد استعاذ ﷺ بالله – تعالى – من الفقر فقال : (**اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والحاجة**)

وروى عن الإمام على ﷺ أنه قال : لو كان الفقر رجلاً لقتلته

وقد حارب الإسلام الفقر ، عن طريق دعوته إلى العمل ، وعن طريق الزكاة ، وهى ركن الإسلام ، وعن طريق الصدقة ، وهى أفضل العبادات ، وعن طريق التكافل الاجتماعى ، يقول ﷺ :

(**من كان له فضل ظهر فليعد به على مَنْ لا ظهر له**)

ويقول : (**لا يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم**)

ويقول : (**من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة**)

وذلك لأن الحاجة التى كادت أن تكون كفراً كما قال النبى ﷺ تؤدى إلى قتل المشاعر بالمعانى ، وإذا قل الإحساس بالمشاعر ، أو قتل المشاعر قل الاعتبار ، ولن يفيد عبد القطيفة ، ولا الحريرة ، ولا الذهب ، ولا الفضة ، ولا الدينار ، ولا الدرهم ؛ لأن هذه صارت أوثاناً

ولأن القلب مناط الإحساس ، فقد دعا الإسلام إلى سلامته ؛ لأن بسلامته ولسلامته يسلم الشعور ، وإذا سلم الشعور من العاهات ، والعلل كان القلب موضعاً صالحاً للاعتبار

وأول شىء يجب أن يسلم منه القلب الشرك بالله ﷻ

قال الله –تعالى– فى سورة الشعراء : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ الشعراء: ٨٨ – ٨٩

والعلماء على أن معنى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أى بقلب سليم من الشرك

ولن يسلم القلب من الشرك إلا إذا كان دينه خاصاً لله ﷻ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ الزمر: ٣

ولن يخلص الدين إلا كما تخلص الأشياء من الشوائب ، أى إلا إذا تخلص العبد المكلف من عبادة غير الله – تعالى – وتخلص من التطير ، والتشاؤم ، وقراءة الفنجان ، والطالع ، والنجوم ، وكل ما هو معروف شائع ،

ويتعلل الناس فيه تارة بأنه علم ، وتارة أخرى بأنه تسلية واستئناس ، وذلك كله مما يجرح العقيدة ، ولا تقبل العقيدة الجراح ، وإنما تتقبلها الأعمال ، وعلينا أن نعى أنه إذا صحت العقيدة تقبل قليل العمل ، وإذا جرحت العقيدة لم يتقبل كثير العمل ،

وكما دخلت أشياء ليست من العقيدة القلب فأفسدت صحيح العقيدة ، دخلت كذلك أشياء أخرى أفسدت صحيح المشاعر ، ومن ثم قل فيه الاعتبار ، أو مات ، ألست ترى كثيراً من الناس يحب الظالمين ، ويؤثر صحبة المفسدين على الصالحين ، والجاهلين على العلماء ، وغير المسلمين على المسلمين ، فهل تظن أن هؤلاء من أهل الاعتبار ؟

إنهم بلا شك عن الاعتبار لمحجوبون ، حال بينهم وبين الاعتبار ذلك الفساد الذى أصاب مشاعرهم ، كما أصاب عقيدتهم ، فهم فى ريبهم يترددون

كان أحد المنافقين واسمه زيد بن اللصيت من أكثر الناس ملازمة للنبى ﷺ ومع ذلك كان من الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، وفى تبوك سأل الناس رسول الله ﷺ أن يدعوهم بنزول الغيث ، حيث عطشوا ولا ماء ، فدعا ﷺ ربه ؛ فأمطرت فى الحال

وكان إلى جنب زيد هذا ابن عم له ، يعلم بنفاقه ؛ فقال له عندئذ : أسلم يا زيد

أى أنك قد رأيت آية من آيات النبوة ، وهى إجابة الدعاء فى الحال بنزول المطر ؛ فماذا قال زيد ؟

قال : إن هى إلّا سحابة مرّت

وفاسد المشاعر كفاسد العقيدة دائماً لا يأتى بخير ، فقد حمل زيداً على الكفر بغضه ، وهل مثل رسول الله ﷺ يبغض !

وقد كان أجمل الناس وجهاً ، وأعدلهم قولاً وفعلاً، وأصدقهم منطقاً وحالاً، وما جرب الناس عليه كذباً قط

والإسلام ، يحّول تلك المشاعر الفاسدة إلى مشاعر صحيحة ، بدليل أن الذين كانوا يبغضون رسول الله ﷺ قبل إسلامهم – أحبوه بعد إسلامهم حبا فاق حبهم آباءهم ، وأبناءهم بل وأنفسهم

وقد قال ثمامة بن أثال بعد إسلامه للنبى ﷺ :

وقد كان وجهك أبغض الوجوه إلىّ ؛ فصار أحب الوجود كلها إلىّ، وكان بلدك أبغض البلاد إلىّ فصار أحب البلاد كلها إلىّ، وكان دينك أبغض الناس إلىّ؛ فصار أحب الدين إلىّ

فليس هنالك من سر لهذا التحول إلا الدين ، أسلم ثمامة ؛فتحول شعوره الفاسد إلى شعور صحيح مثلما تحولت عقيدته الفاسدة إلى عقيدة صحيحة ، وقد أسلم مَنْ أسلم على هذا النحو ، وقد ذكر ابن حجر فى فتح البارى ، فى شرحه حديث رسول الله ﷺ : (**الأرواح جنود مجندة ما تعارف عليها ائتلف** ......) الحديث

أن مَنْ سمع بإسلام أحد فلم يحبه فليراجع إيمانه

وأنا أقول : إن العبرة بمقتضى الحب لا الحب فى ذاته ، أى أنه أخوك ، لا تظلمه ولا تسلمه ، وتحب له من خيرى الدنيا والآخرة ما تحب لنفسك ، ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)

وليس أدل على فساد المشاعر مَنْ حب الناس مَنْ ليس موطناً للحب ، فللحب وطن ، ووطنه معروف لكننا عنه غافلون ، فالوطن الذى ينتمى إليه الإنسان وطن حبه للأوطان ، وإن أعجبته أوطان أخرى

قال الشاعر :

إنى مررت على الرياض الحانية ... وسمعت أنغام الطيور الشاديه

فطربت ، لكن لم يحبَ فؤادية ... كطيور أرضى أو زهور بلادى

قالوا : أليس الحسن في كل الدنا
فعلام لم تمدح سواها موطنا
فأجبتهمُ إني أحبُ الأحسنا
أبداً ، وأحسنَ ما رأيت بلادي

فإذا رأيت الرجل يبغض وطنه ، مسقط رأسه ، ومربع صباه ، ومعهده ، ومدرسته ، وجامعته ، وتراث آبائه وأمهاته فى الوقت الذى يعلن فيه حبه لسائر الأوطان فاعلم أنه ذو شعور منحرف ، ولا تنتظر منه اعتباراً

لقد بكى النبى ﷺ مكة حين هاجر منها ، وناجاها بأندى الكلمات المعبرة عن صدق مشاعره :

إنك لأحب بلاد الله إلى الله
وأحب بلاد الله إلى نفسى
ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت أبداً

وظل يودها قلبا وتحنانا، وفاضت عيناه حين وصفها أصيل الغفارى إثر هجرته ، وقال له : دع القلوب تقر

والنبى ﷺ تذرف عيناه الدمع لما وصل ابن مسعود ﷺ فى قراءته عليه سورة النساء إلى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ النساء: ٤١

وقال له : أمسك ؛ فإذا عيناه ﷺ تذرفان ، وذلك ؛لأنه سوف يشهد على الأمة التى سيقال له فى بعضها حين يقول : أمتى أمتى : إنك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك ، وهو بلا شك يحب أمته ، والأمة الإسلامية وطن الحب ، وقد قال الله

ﷻ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة: ١٢٨

وقد قال كذلك عز من قائل : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفتح: ٢٩

فمن وجدتهم متراحمين بينهم فاعلم أن حبهم فى وطنه ، وأن مشاعرهم صحيحة ، وأبشر بأنهم من أهل الاعتبار ، ألا ترى إلى قول الله ﷻ فى آية المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٤

فتأمل قول الله – تعالى – (فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ)

حيث قال ﷻ : (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ)

كما قال سبحانه : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ ﴾ الفتح: ٢٩

فالتناغم أصل المعانى الصحيحة ، والشاهد أن مَنْ كان ذلولا للمؤمنين ، يألفهم ويألفونهم ، ويحبهم ويحبونه ، ويقضى لهم حاجتهم ، ويسعى فى

تحقيقها ، ابتغاء وجه الله ﷻ كان من أصحاب المشاعر الصحيحة ، وكان من أهل الاعتبار ، بخلاف من يمنح غير المسلمين وده فهو فاسد المشاعر ، منحرف القلب ، ألا ترى إلى قول الله – تعالى – فى آية البقرة : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة: ٢٤

وقوله – تعالى – فى خاتمة المجادلة : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة: ٢٢

وكذلك مَن سرّه حسنته ، وساءته سيئته ، قال فيه النبى ﷺ : إنه مؤمن ، وهذا أيضاً من وطن الحب ، فكما يكون الحب للوطن أرضاً وسماء ، وتراباً وماء ، وأهلاً ، ويكون للمؤمنين كذلك يكون للأعمال الصالحة .

وكذلك مَنْ كان خيره لأهله ، لقول النبى ﷺ : (**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى**) فإن الأهل موطن الحب ، وليس معنى الحديث فى

العطاء المادى فحسب ، وإنما هو كذلك فى منح المشاعر الصافية ، والجدان المنعم بحب الخير ، والتواد

وقد انحرف الشعور عند كثير من الناس ، الذين نراهم يؤثرون الأجنبى على القريب ، ويحبون الغريب دون القريب ، ويمنحونه قلوبهم وخالص مشاعرهم ، فإذا حضر أحد من أقاربهم رأيته كأنه لسعته عقرب ، أو كان كابوساً مرعباً أطبق على أنفاسه ، وشعرت بأنه قد تحول من إنسان سوى إلى آخر تتنازعه الشياطين ، فهو لا يطيق النظر إلى أقاربه ، ولا يطيق سماع كلمة منهم ، ولا يرد عليهم برد حسن ، وكان قبيل وصول قريبه هذا واسع الصدر حليماً لطيفاً

وقد روى البخارى فى صحيحه حديث مالك بن الحويرث ﷺ الذى كان مع جماعة من الشباب عند رسول الله ﷺ وأقاموا عنده عشرين يوماً ، فلاحظ ﷺ شوقهم إلى أهليهم ، فأمرهم ﷺ بالرجوع إليهم

نمّى ذلك الإحساس فيهم ﷺ لما له مِنْ أثر عليهم ، وعلى الدنيا جميعاً ، من أجل الغاية السامية ، والهدف الأصيل ، وهو سلامة الشعور الذى إن تحقق ضمنا أهلية الاعتبار عند أصحابه

ولو أن رجلاً اليوم قال فى جماعة من رفاقه :

– لقد اشتقت إلى أهلى لسخروا منه ، وإن كان ذلك فى الظاهر يبدو من باب المزاح ، فإنه يكشف عن ثقافة جريمة ، هى ما أسميها ثقافة الغرب الجريمة ذلك ؛ لأن جل مشاعر الناس قد انحرف ، وليس من سلامة المشاعر والقلوب

أن يكون الحب زنا ، وأن يكون الأجر على غير عمل ، وأن يطيب طعام من حرام ، وأنْ تحب المرء لغير الله ، قال ﷺ : (**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يعود فى النار**)

وسلامة القلب تعنى كذلك سلامته من أمراض القلوب ، أى من الحقد ، والحسد ، والبغضاء ، والكبر ،

ألست تقرأ قول الله – تعالى – : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) ﴾ البقرة: ١٠٩

وفى ليلة بدر جلس الأخنس بن شريف مع أبى جهل على عشائه ، وكان من سمرها أن قال الأخنس لأبى جهل :

– أتظن أنّ محمداً كذاب ؟

فقال أبو جهل :

– كيف ، ولم نجرب عليه كذبا قط

فقال الأخنس :

– فلم جئنا لمحاربته ؟

فقال أبو جهل :

– إذا كان فى بنى هاشم السقاية والرفادة ، وكانت فيهم النبوة ، فماذا بقى لنا ؟

وعندئذ تركه الأخنس ، وأخذ رجاله ، ومضى ، وقد جاء ينصره على محمد ﷺ

أى أن المانع الذى منع أبا جهل من الإسلام هو الحسد

والحاسد قلبه فيه سواد ، ونار ، وما أظن هذا السواد إلّا من دخان تلك النار ،

ألا ترى إلى قول الشاعر :

اصبر على كيد الحسو ... د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

ولن يكون القلب الذى تغشاه السواد محلًا للاعتبار ؛ لأنه لم تعد فيه مساحة لكى يتلقى درس الاعتبار وهو عظيم ، إنه مشغول بالنعمة التى عند غيره ، يرجو زوالها ، لا يعنيه من أمر الحياة إلا زوال النعم التى عند غيره ، فكيف يعتبر !

وكذلك صاحب الحقد والبغضاء التى قال فيها رسول الله ﷺ : إنها الحالقة ، قال : لا أقول حالقة الشعر ، وإنما أقول : حالقة الدين

فهل تظن أنّ مَنْ كان حليق الدين من أهل الاعتبار !

وكيف يعتبر ، والقلب منه – الذى هو محل الاعتبار ، فيه سواد الحقد والبغضاء

والحاقد هو مَنْ لا يطيق سماع أخبار حسنة طيبة ، إنما يسعده أن يرى الناس خصوصاً أعداءه ، والذين لا يحبهم فى بؤس دائم وشقاء مقيم

ولتقرأ هذه الآيات من سورة آل عمران (١١٨ ، ١١٩) حيث يقول ربنا ﷻ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ

ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٨ – ١٢٠

والشاهد أن هذا صنف من الناس ليس فى قلوبهم محل مستعد لتلقى الاعتبار ، صنف منحرف المشاعر والأحاسيس ، وذلك من خلال محاور ثلاثة

الأول : أنه يود عنت الناس

والثانى : أنه يشعر بالألم إذا مس الناس حسنة

والثالث : أنه يشعر بالفرح إذا مس الناس سيئة

لذلك هو دائم الفتن ، والسعى فى إضعاف قوى الإيمان ، والجهاد ، وهو لا يعرف الحب ، وهو دائم النفاق ، وهو دائم الغيظ

إن بعض الناس حين تلقى على أذنيه هذه العبارة :

– فلان يفرح فى مصائب الناس ، ويحزن لما يسرهم

يقول لك :

– أعوذ بالله ، يا ساتر يا رب

وقد يكون صادقاً ، أفزعته هذه العبارة التى تدل على أنه لا يتصور أن هناك مؤمناً يكون هذا شعوره

وقد يكون كاذباً، يقول لك هذه العبارة ، وهو من أرباب هذا الإحساس السيء ، الذى هو انحراف عن سوى الشعور ، والأحاسيس ، التى تدل على أن القلب مناط الاعتبار ليس قلباً سوياً سليماً ، وإنما هو قلب مريض ، وآية مرضه أنه لا ينبض بالشعور السوى الذى يقتضى الفرح عند المسرة ، والحزن عند المضرة ، حتى ولو كان الذى نفرح من أجله ليس مسلماً

ألا ترى إلى قول الله – تعالى - : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ الروم: ١ – ٥

أى يفرح المؤمنون بنصر الله الروم ، ولم يكونوا مسلمين ، لكنهم كانوا أقرب إلى المسلمين ، من الفرس حيث كانوا أهل كتاب ، وهى ملابسة ، وإذا كان المؤمن يفرح من أجل نصر الله طائفة من أهل الكتاب فإنه من باب أولى يفرح بنصر الله طائفة من إخوانه المؤمنين ،

لقد وسع الإسلام دائرة الفرح ؛ لأنه دين التسامح لا الشقاء ، ليبنى المشاعر الصحيحة فى قلوب المسلمين ، لكن الناس هم الذين يصنعون النكد والأحزان ، ويجلبون إلى أنفسهم الشقاء ، ويصرون على أن يكون النكد فى بيوتهم ، وفى طريقهم ، بل وفى منطقهم وفلسفتهم ، ومنهج حياتهم ، ألست ترى كثيراً من الناس إذا ضحكوا تشاءموا ، وإذا ألقوا أحد الناس يضحك سخروا منه ، وقالوا : إنه فى غيبوبة ، ولا يدرى سر الحياة ، وأن الحياة عندهم

مبنية على النكد والعبوس ، وكـأنهم لم يطـالعوا قـول الله – تعـالى - : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ عبس: ١ – ٧ معاتباً رسوله ﷺ فى عبد الله بن أم مكتوم الأعمى

وقد توسع الإسلام كذلك فى إشاعة روح الفرح والمسرة فى المعانى ، كـما فى قـول الله – تعـالى - : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يونس: ٥٨

فجعل الفرح بفضل الله وبرحمته من عبادة ، وتوفيق ، وراحة بال ، وصلح مـع عدو ، وشفاء من داء ، ومن نـزول غيـث ، وإنبـات أرض ، وغـير ذلـك مـن صنوف الرحمة الواسعة ، وإذا وسّع الدين أمراً من الأمور ، وكل أموره واسعة ، وضيق العبد ، كان ذلك دليل رحمة ، ودليل انحرافه عن منهج ﷺ وكان أبعد ما يكون عن الاعتبار

الفصل الرابع

الآثار المترتبة على العبرة

إن الآثار المترتبة على العبرة يمكن أن تكون فى جانبين

الأول : فى حياة الفرد

والثانى : فى حياة الأمة

أما الجانب المتصل بحياة الفرد فهو تزكية نفسه ، وارتقاؤه من مستوى الحيوانية إلى مستوى الإنسانية الراقى الذى يدركه الأسوياء ، ويسعون إلى تحقيقه ، فعقيدته تصح من العلل والمشوهات ؛ لأن الله الدين الخالص ، والذين أشركوا به ﷻ ضل عنهم ما كانوا يفترون ، ودعوا شركاءهم من دون الله فلم يستجيبوا لهم ، وقالوا بعد فوات الأوان : ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ غافر: ٧٤

وتحولوا جميعا إلى أعداء ، فكلما دخلت أمة النار لعنت أختها ، ولن ينفعهم أنهم يوم القيامة فى العذاب مشتركون ؛ إذ لا تهون منه فلسفة ، ولا يخفف منه هموم ، كما يكون فى الدنيا

ألا ترى إلى قول الخنساء

يذكرني طلوع الشمس صخراً
وأذكره مساء حين تمسي
ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي

لقد بكت أخاها صخراً – لكرمه – وكاد بكاؤها عليه يقتلها ، ولكن منع من قتله إياها كثرة الباكين حولها على إخوانهم

وقد روى أهل العلم قصة رجل صالح قيل هو ذو القرنين أشفق على أمه حين أدركه الموت : فأوصاها إن هو مات أن تصنع طعاماً ، وتدعو إليه النساء ، وتقسم عليهن ألا تقربه ثكلى (أى مَنْ فقدت ابنها أو زوجها) فلما مات نفذت أمه وصيته ، وصنعت طعاما ، ودعت إليه النساء ، وأقسمت عليهن ألا تقربه امرأة ثكلى ، فامتنعن جميعهن ، ولم تأكل منه واحدة ؛ لأنهن كلهن ثكالى ؛ فخفف ذلك عنها مصابها ، حيث لم تكن الوحيدة الثكلى فيهن

وفى الآخرة لا ينفع هذا الذى كان ينفع فى الدنيا ، والسبب أن العذاب يعتبر إذا كان أهلاً للاعتبار كما ذكرت ، وإذا اعتبر فلن يشرك بالله شيئاً ؛ لأنه علم أن الذين أشركوا بالله سوف يعذبون فى نار جهنم ، وأنهم كما قال الله ﷻ : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ النساء: ٥٦

وأنهم كما قال الله – تعالى – : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ فاطر: ٣٧

وأنهم كما قال ربنا : ﴿مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الرعد: ١٤

وأنهم – كما قال الله ﷻ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ الغاشية: ٢ – ٧

وأنهم كما قال الله ﷻ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأعراف: ٥٠

وأنه يقال للواحد منهم تهكما : ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ الدخان: ٤٩

ويقال للملائكة : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ الحاقة: ٣٠ – ٣٣

ولا شك أن المعتبر ذو عقل سليم ، وإحساس حى نابض بشعور الاعتبار ، وهو عندما يقف على هذا الحق يستشعر نعمة الله الذى هداه للإيمان ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴾ الأعراف: ٤٣

ويكبر تلك النعمة ، ويحمد الله ﷻ عليها ، ويرى كل مصيبة ضئيلة ، وقد سبق أن الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – كان إذا أصيب أحدهم بمصيبة ، قال : الحمد لله الذى لم يجعل مصيبتى فى دينى ، أى أنه يحمد الله كثيراً؛ لأنه نجاه فى دينه ، ومن سلم دينه هانت عليه مصائب الدنيا ؛ إذ إنها هينة جداً بالنسبة إلى مصابه فى دينه

إذ إن الدين إذا فسد فقد خسر صاحبه فى الآخرة ، وماله من دون الله من ولى ولا نصير

وكذلك يعتبر الشاب الذى يرى أن الشباب فى دين الله ﷻ قوة تقيم الدين ، وترفع راية المؤمنين ، فإذا به يعمل كما عملوا ، ويجاهد فى الله حق جهاده ، راجياً أن يكون فى مصاف هؤلاء الذين ذكرهم الله – تعالى – فى كتابه فأضاء بهم تاريخ النور ، وجعلهم أسوة لمن بعدهم من الأجيال التى تتعاقب إلى يوم القيامة

فليست العبرة فقط فى الهالكين ، والمعذبين ، وإنما تكون العبرة فى سلوك الفائزين ، وخلف المؤمنين ، الذين يجاهدون فى الله حق جهاده ، ويرتقون بهذا الجهاد إلى عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون

وقد قال الله ﷻ : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ يوسف: ١١١

وقصص الأنبياء على وجه الإجمال قصص إيمان ، وجهاد ، ونبل فى السلوك ومكارم الأخلاق

وقد قال النبى ﷺ فى يوسف ﵇ : (**رحم الله أخى يوسف ، لو كنت مكانه لأجبت الداعى**) ، وقد ذكرت هذا الحديث فى موضعه .

والله ﷻ يخاطب رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ الأحقاف: ٣٥

ويقول له : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٨

ولا يعترى بالصالحين إلا صالح ، ولن يتأسى بهم إلا من اعتبر

ولدينا في قصة سيدنا محمد ﷺ وسيرته العطرة الكثير من العبر ، وأود أن تقف عند تلك المواطن التي هي من مواطن الاعتبار ، والتي يبدو أثرها في أخلاق انطلقت من خلق مَنْ خاطبه ربه ﷻ بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

لقد صعد النبي ﷺ الطائف راجيا أن يؤمن أهله بعد أن كذب أهل مكة ، وعرض عليهم ما جاء به من نور ، ورحمة ، وحق ، فما كان من أهل الطائف إلا أن كذبوا كما كذب إخوانهم من أهل مكة ، وآذوه فسلطوا عليه سفهاءهم وأطفالهم ؛ فرموه بالحجارة حتى انتهى إلى شجرة ، جلس في ظلها ، والدمع في عينيه يناجي ربه قائلاً في خاتمة مناجاته : (**إن لم يكن بك غضب عليَ فلا أبالي**)

وفي ذلك من الاعتبار ما هو كفيل بأن يغير الفرد والأمة ، حيث يخفف كل صنوف العذاب استشعار للمؤمن برضا ربه – تعالى – عنه من الطاعات شيئاً ، وقد قال ﷺ : (**لا تحقرنَ مِنَ المَعْرُوفِ شيئا، وَلَوْ أنْ تلقى مِنْ دَلْوِكَ فِي إناءِ المُسْتَسْقِي**)

أي أن تعطى بعض ماء رجلاً يطلب الماء ، وجاء في الحديث : وإن تلقى أخاك بوجه طلق

والمرء إذا لقى صنوف الألم بحث مجتهداً عن دواء ، يخفف به ألمه ، وقد يكون هذا الدواء مرّاً علقماً ومع ذلك يتحمله ساعة ، حتى لا يتحمل الألم كل ساعة

وليس في طاعة الله ﷻ مرارة ؛ لأن الله ﷻ لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد قال العلماء : إذا صحت العقيدة تقبل قليل العمل ، وإذا فسدت العقيدة لم يتقبل كثير العمل ، وقد دخل رجل الجنة بسبب كلب سقاه ، ورفع رجل شوكة من عرض الطريق إلى جانبه ؛ فنظر الله – تعالى – له فشكر له ، فغفر له ، وما أكثر الأعمال التي تدخل صاحبها الجنة برحمة الله ﷻ فمن يتأمل دين الله ﷻ فلن يجد فيه مرارة ، وقد قال النبي ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف به في النار) فانظر كيف عبر النبي ﷺ بالحلاوة ، حلاوة الإيمان ، التي قيل : إنها حلاوة حقيقية حسية ، وقيل : معنوية

أي أن الحلاوة موجودة دون المرارة ، والتيسير موجود دون التعسير ، وقد قال الله ﷻ :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ البقرة: ١٨٥

وقال ﷺ : (**إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه**)

ومن مواطن العبرة في سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ أنه ما خيِّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه .

ولا أحد يتشدد ، أو يميل إلى التشدد إلا مَنْ قسا قلبه، ومن كان ذا قلب قاس كان أبعد ما يكون عن الاعتبار ؛ لأن الاعتبار لا يلتقى وقسوة القلب على طريق ، والدليل على ذلك قول الله – تعالى – : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ

﴿ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ البقرة: ٧٤

وهل تظن أن الحجارة تعتبر ، وإن وضعت بأنها يتفجر منها الأنهار ، وأن منها ما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وهي لا تعتبر ؛ لأنها مسّخرة غير متأثرة ، فالسماوات والأرض قالتا: آتينا طائعين

لكن يبقى في النهاية على الأصل الأصيل أنّ الحجر لا يعتبر ، وكذا من كان قلبه أشد من قسوة الحجارة

والله ﷻ يقول في آية الحديد : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)﴾ الحديد: ١٦

وما أشد خطورة هذا الأمر الذي يطول على عادة سيئة !

إنه كما قال الله – تعالى – يورث القسوة ، ولا أمل بعد استقرار القسوة من رحمة ، أو من تغيير ما اعتاد الإنسان طيلة هذا الزمن من سوء العادات ، ومنها عدم الاعتبار

وقد قرأنا قول الله – تعالى – : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ النساء: ١٧

لأن التوبة من قريب ممكنة بخلاف ما لو أهمل المرء حاله فاستمر على الذنب أمداً بعيداً ، فإن توبته ورجوعه إلى الله ﷻ من العسر بمكان

ومن دعاء بعض الصالحين : اللهم اجعلني معتبراً بغيري ، ولا تجعلني عبرة لأحد ،

وأنا أتصور أن هذا الدعاء ما فاض من قلب قاس ، ولا بعيد عن العبرة والاعتبار ، بل إني على شبه يقين أنه فاض من قلب تأثر بها وعى من مواطن العبرة ، حيث نكل بأقوام ، وخسف بأقوام ، وأغرق آخرون ، فتصور نفسه أنه سيكون موضع عبرة مثل هؤلاء ، وأن الله – تعالى– من اليسير عليه أن يدمر عليه ، وإنْ يخسف به ، وأن يغرقه ، وأنه لن ينفعه إيمانه وقتها ، فقد فات الأوان ، وأن الناس سوف يظلون يقولون : فُعِل بفلان كذا وكذا وكذا ؛ لأنه فعل من المنكرات كذا وكذا ، انتفض كما انْتَفَضَ العُصْفُور بَلّلَهُ القَطْر، وقال : يارب اجعلني أعتبر بغيري ، ولا تجعلني عبرة لغيري ، بأن تعاقبني وأنت العدل فأكون موضع عبرة لغيري ، وتنزل بي الخطوب ، والبلايا ، وينظر إلى الناس ، وفيهم بلا شك شامت ، وفيهم غير ذلك ، وتلك طبيعتهم ، كما قال الشاعر :

إذا مت كان الناس صنفان شامت
لموتى ومُثنٍ بالذى كنت أفعل

هكذا (صنفان) بالرفع خبراً للمبتدأ (الناس) والجملة في محل نصب خبر كان واسمها (الشأن)

إن أثر الاعتبار فى حياة تأديب بسلام ، وارتقاء فى أمان ، وتغيير بلا أصوات ، وسمو بهدوء ، وما أشبه ذلك برجل طاف العالم وهو جالس فى حجرته ، ودرس ما فيه ، ووقف على خريطته ، وما منح من مقومات حضارة ، وعلم أى البلاد أنفع ، ولم يبق له إلا أن يسافر ويحقق مصلحته ، وما أشبه ذلك بصاحب القرار ، الذى اتخذه بعد دراسة صامتة ، وتفكر عظيم دون أن يسمع له أحد صوتاً

أما أثر الاعتبار فى حياة الأمة فبالإضافة المسلمة المعروفة التى تقول : إن الفرد لبنة فى صرح الأمة ، وإنّ الفرد إذا صلح صلحت الأمة أقول : إن أثر الاعتبار فى حياة الأمة يتجلى فى بزوغ شمها ، وكسوف تخلفها ،وأن الأمة التى تعتبر حتى بما حدث لها عبر التاريخ ، وما عانته من مشكلات وحروب هى أمة سوف تنهض بالضرورة ؛ لأنها أمة مبصرة ، ذات بصيرة ، وكما قيل من زمن بعيد قول النبى ﷺ :

(**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**) فإن الوقوع فى زمان الأخطاء التى وقعت فيها الأمة من قبل فسببت لها الكوارث ما أدى إلى معاناتها أزمنة طويلة ، ودفع ثمنها كل جيل من بعد جيل دليل غباء وعمى ، وليس دليل اعتبار ؛ فإن الاعتبار يؤدى فى النهاية إلى خير ؛ لأنه خلاصة نظر بالعين ، ونظر بالقلب ، أى نتيجة بصر ، وبصيرة ، ولن تؤتى نتيجة البصر والبصيرة ، آخر الأمر إلا خيراً

وقد قال الله ﷻ : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾ آل عمران: ١٦٥

وصّى رسول الله ﷺ الرماة يوم أحد بأن يلزموا أماكنهم خلف جيش المسلمين ، وألا يتركوها بحال ، سواء انتصر المسلمون أو لا ، فلما رأى الرماة نصر إخوانهم ظنوا أنه لن تتحول الدولة والريح إلى أعدائهم أبداً، فنزلوا تاركين أماكنهم ، فانقلب الأمر ، وصارت الدولة والريح للمشركين ، حيث جاءوا المسلمين من خلفهم ؛ فأصابهم القرح (الجرح) ، ولما قالوا : أنّى هذا ؟

أى كيف يتفوق علينا مَنْ يشرك بالله ، ونحن مسلمون مؤمنون ؟ قال الله – تعالى - : ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ آل عمران: ١٦٥

أى أنكم السبب ، حيث تركتم أماكنكم ، ولم تلتزموا بوصية قائدكم

وكان لزاماً على الأمة أن تعى هذا الدرس أبداً، وألا نرتد عنه يوماً؛ فإن السفن لا تتغير

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢ ﴾ الأحزاب: ٦٢

والملاحظ فى آيات الكتاب الكريم أن الخطاب فيه فى سياق الاعتبار للأمة لا للأفراد ،

ألا ترى إلى قول الله – تعالى - : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ الحشر: ٢

وقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ المائدة: ١٠٠

فإن قلت : فما تقول فى قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ النازعات: ٢٦ ؟

فالجواب أنّ (مَنْ) اسم موصول مشترك ، أى للواحد ، وللاثنين ، وللجماعة ، وليس نصّا فى الإفراد كالذى ، والمعنى إن فى ذلك لعبرة لكل خاش ، وهكذا يجب أنّ تعتبر الأمة .

والأمة لن تعتبر ما لم يكن قائدها وولى أمرها حريصاً على دروس الاعتبار ، يفيد منه أولاً فى شخصه ، ويبنى به مؤسسات دولته ، فلو كان حاكماً موفقاً لوقف عند مواطن العبرة ، وأوقف شعبه وأفراد أمته عليها ، ونمّى ذلك منهم ، حتى ينمو دروس العبرة داخلهم فإنه وارع ذو سر عظيم ، حيث إنه يعفيه من إنفاق ما لا يحصى من المال على إصلاح المفاسد التى أحدثها مَنْ لا يعتبر ، وكذلك إنفاق ما لا يحصى من المال فى إطعام المسجونين ، ودراسة قضاياهم ، وترحيلهم من السجون إلى قاعات المحاكم والعكس ، وإنفاق ما لا يحصى من المال على أهالى المجروحين ، والقتلى الذين راحوا ضحية الجرائم المنكرة التى ارتكبها مَنْ لا يعتبر ، فلو كان معتبراً ما ارتكبها ، ولكان شخصاً سوياً يمشى على نور من ربه بين الناس

ومن كان على نور من ربه يمشى به بين الناس كان نسمة بينهم ، يصلح ولا يفسد ، ويبنى ولا يهدم ، ويحمل الكل ، ويعين المحتاج ، ويزرع ، ويصنع ، ويتاجر ، ويربح ، ويعطى وينفق ، ويجاهد حق الجهاد فى سبيل الله لا

فى سبيل الشيطان ، والشيطان يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، وإذا فشا ذلك فى الناس فقد اتسع الخرق على الراقع ،

وتحت شعار (الحرية) و (التعبير عن الرأى) هناك مفاسد ، ومضار ، لا يعلم مداها السيء ، إلا الله ﷻ ،

ويكفى أنه تحت ذلك حدثت أمور عظيمة لها أثرها السيء فى حياة الناس ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

الخوض فى آيات الله بلا علم ، والنيل من أصحاب الصحاح كالبخارى ومسلم، وغيرهما ، وصرنا نرى مَنْ ليس عنده أدنى علم بالدين يتصدر مجالس الإفتاء ، ويظهر على شاشات الفضائيات والأرضيات يضل الناس بغير علم ، ويجرح مَنْ لا جرح فيه ، قائلا : إن البخارى بشر يخطىء ويصيب ، كلمة حق يراد بها باطل ، يخطىء ويصيب فى مصنف كتبه من خياله ، وفى كلمة إملائية ، وفى سلوكه كالإنسان ، لكن فى منهج يراه الأعمى قبل البصير ، من اشترط أن يكون كل راو روى عن رسول الله ﷺ قد رأى صاحبه الذى روى عنه حتى ينتهى الأمر إلى صاحب الرسالة له المعصوم ﷺ فلا ، فلم يبق إلا النص النبوى ، الذى هو بلا شك صحيح ، وفق هذا المنهج الذى ارتضاه البخارى ، والنص أسلوب عربى مبين ، وللأسلوب العربى المبين فقه وعلم ، فلا يصل إلى معناها المراد إلا من كان عَلِم عِلْم بهذا الفقه الذى أسميه فقه الأساليب ، وهذا لا يتوفر لكل أحد ، ومن فضل الله – تعالى – ورحمته أن ليس كل نص فى حاجة إلى هذا العلم العظيم ، فهناك نصوص يعرفها المتعلم والأمى ولا تحتاج

إلى حمل ، لا إلى تأويل ، ومنها هذا الحوار الذى كان من رسول الله ﷺ وبين الأعراب الذى سأله عن الإسلام ، فكلما ذكر له ركناً قال له :

هل عليّ غيره ؟

والنبى ﷺ يقول : لا

إلا أن تطوع ، حتى قال : والذى بعثك بالحق لا أزيد على هذا ولا أنقص ؛

فقال ﷺ : دخل الجنة إن صدق ، وفى رواية : أفلح إن صدق

وكثير من نصوص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية على هذا المنوال الواضح ، والذى أرى أنه من قبيل

(عزم الأمور) أى من قبيل ما يبنى الشخصية المسلمة من عقيدة صحيحة ، :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص: ١ – ٤

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ النساء: ٣٦

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ الإسراء: ٢٣

ومن عزم الأمور فى المأمور به والنهى عنه

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ الإسراء: ٢٦

و ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ لقمان: ١٨

ومن الأحاديث الشريفة التى هى موطن علم واعتبار ما رواه البخارى عن صفية زوج النبى ﷺ أَنَّهَا جَاءَتْ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ

مِنْ رَمَضَانَ . فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً . ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ . فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ مرّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ فقال لهما : عَلَى رِسْلِكُمَا . إِنَّمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ . فَقَالا : سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ . فَقَالَ : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ . وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شيئاً

وفى رواية : (**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق**)

وقد حمل مَنْ لا علم له بأسرار البلاغة ظاهر الحديث على الحقيقة ، فاستدل به على أن الشيطان يدخل جسم الإنسان ، يلبسه ، وأنت تعلم ما جرته علينا تلك المسألة من مآس ، وجرح ، وما نرتب عليها من معتقدات فاسدة ، وما راح فيها من ضحايا ، ماتوا أو على الأصح : قتلوا ، قتلهم من نصب نفسه أستاذا فى إخراج الشيطان من جسم الإنسان بالضرب ، وهو يزعم ، وكذلك مَنْ حوله من أهالى المريض نفسيًا أو عضويا أنه يضرب الجان الذى بداخله ، ويظل يقول وهو يضربه : اخرج عدو الله أنا الشيخ فلان .... حتى مات الإنسان

والحق أن الحديث محمول عند أهل العلم على الكناية ، أى على المجاز لا على الحقيقة ، فمعنى يبلغ مبلغ الدم ، أو يجرى فى ابن آدم مجرى الدم فى العروق الملازمة ، وليس معناه أنه حقيقة داخل جسمه ، كما تقول الإنسان تحبه : (أنت فى عينى ... وأنت فى قلبى ....) ونحو ذلك

وقد قال الله ﷻ فى آية الأعراف : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف: ٢٧

وقد استدل الإمام الشافعى بهذه الآية على تفسيق مَنْ يدعى أنه يرى الجن ، ورد شهادته ؛ لأنه مخالف لصريح القرآن الكريم ، فما بالك بمن يقول : إن الجن يسكنه ، أو يعاشره معاشرة الأزواج ، وغير ذلك من الخيالات السخيفة ، والأوهام المريضة .

ومع وجود علماء ، وأحداث ، ونشر فى الجرائد عن تلك الكوارث ، وأن مرتكبها أحيل إلى الجنايات نجدها فى كل يوم تتكرر ، ولا فائدة فما اعتبر هؤلاء بعلم ، وما اعتبروا كذلك بقانون ، ولابد عن عناية الدولة بالخطاب الدينى الذى يبنى الإنسان ، لا الخطاب الدينى الترفيهى الذى يسليه ، ويعينه على إنفاق وقته فى شىء لذيذ طريف

ومع وجود آية من آيات الاعتبار فى الحديث الشريف ، وهى أن رسول الله ﷺ أوقف الرجلين من الأنصار

وقال لها : على رسلكما ، أى : انتظرا ، حتى قال لهم : هذه صفية ، أى زوجتى وما قال : هذه صفية فقط ، وإنما قال : صفية بِنْت حيى ، ولن تكون صفية بنت حيى إلا زوجته ﷺ فهل اعتبر مَنْ لا يهمه أن يقال فيه إنه زير نساء ، وإنه

واقف مع راقصة ، أو بغى ، بينما هو واقف مع أخته التى لا يعرفها المارون بها ، أو زوجته شاع بين الناس : لا يهمنا ، ولا يعنينا ، ولا يشغل بالنا......

وألبسوا ذلك ثوب الدين ، حيث قال قائلهم : ما دمنا على صواب ، وما دام الله – تعالى – يعلم ، أننا على صواب فهل يهمنا كلام الناس

وأنشد بعضهم

فيا ليت ما بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب

يخاطب بذلك ربه ، أو تخاطب به رابعة العدوية على القول بوجود هذه الشخصية بما خلاصته : أنا يا رب أرجو أن يكون الذى بينك وبينى عامراً، وأن يكون الذى بينى وبين العالمين خرابا

فمن الذى قال هذا ؟ فى أى كتاب وفى آية سنة كانت هذه الدعوى إلى عمران ما بيننا وبين الله على أن يكون ما بيننا وبين العالمين خرابا

والله – تعالى – يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الحجرات: ١٠

فهل من مقتضى ما ذكره لنا رسول الله ﷺ من قوله الشريف الصحيح : (**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**) وعد من مقتضيات الأخوة

(١) ألا يحسده

(٢) وألا ينجش من أجل خداعه ، أى يزيد فى ثمن سلعته ، وهو لا يريد شراءها ، وإنما يريد أن يرفع الثمن على المشترى يخدعه بأنها تستحق

(٣) وألا يبيع على بيعه ، وألا يخطب على خطبته

(٤) وألا يكون فى عونه : (**والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه**)

ثم إن لدينا الدليل القاطع على فساد هذا القول ، وهو أن النبى ﷺ قال : (**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**)

وذلك فى رجل شهد الناس أنه إمام المنافقين ، عرض ابنه على رسول الله ﷺ أن يقتله بيديه ، إن كان ﷺ آمراً أحداً بقتله أى آمراً أحداً من المسلمين بقتله ، حتى لا ينظر إليه نظرة كره وبغض ، ويقول : هذا قاتل أبى ، أو يقتله به ، فيكون قد قتل مسلماً بكافر ، فقال ﷺ : بل نكرمه ما دام فينا ، وأوصاه بأبيه خيراً ، وقال هذه العبارة المضيئة : لا يتحدث الناس بأن محمد يقتل أصحابه

ولو كان الأمر على :

فيا ليت ما بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب

لقال له : اقتله ، أو قال لأحد من المسلمين : اقتله ، فهو يستحق القتل ، ولا يهمنى أن يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، فالمهم أننى لا أعصى الله فيه ، إذ المهم أن يكون ما بينى وبين ربى عامراً ، ولا يهمنى أن يكون ما بينى وبين العالمين خرابا !

وقد قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾
الشعراء: ٨٤

أى اجعل لى سيرة حسنة طيبة فيمن يأتون من بعدى إلى يوم الدين ،

ولأن الذى بيننا وبين الله قد يكون سرّا ، كصدقة السر ، وكقيام الليل بالبيت ، وغير ذلك من الأمور

اتخذ ذلك الذين لا يعتبرون إلى دفع التهم بأنهم خارجون عن منهج الله ، ويقولون هذه العبارة ، فيوسعون من دائرة الظنون السيئة ويجلبون لأنفسهم شراً مستطيراً ، إن لم يأت اليوم فسوف يأتى غداً

ولو كانوا من أولى الاعتبار ، والتأسى بسيدنا رسول الله ﷺ لدفعوا عن أنفسهم التهم ، واتقوا الشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، كما قال النبى ﷺ

وإذا أرادت الأمة أن يشيع درس الاعتبار فى أفرادها كان على أولى الأمر ما يأتى

(١) أن يربطوا بين القديم موطن الاعتبار وبين المستقبل الذى ندنو إليه فى ضوء هذا الاعتبار

(٢) وأنْ يعمقوا دور الإعلام الهادف الذى هو رسالة ترفيه راق ، وتنوير حقيقى

(٣) وأهم ما على الدولة أن تقوم به فى تلك القضية العناية بالخطاب الدينى المستنير الذى يبنى الشخصية المسلمة ، ولن يكون الخطاب الدينى خطاباً يبنى إلا إذا كانت العبرة أحد أركانه ، فأنت تقرأ القرآن الكريم الذى هو أساس الخطاب الدينى ومبتدؤه فنجد العبرة سارية فيه ، فما من سورة إلا وهى عبرة ، وقد سبق أن ذكرت فى هذا الكتاب قول الله ﷻ :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ يوسف: ١١١

ونحن نجد الإشارة إلى قصصهم فى فاتحة الكتاب حيث يقول لنا ربنا – تعالى – : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧

ولابد من معرفة سير هؤلاء التى جاءت مفصلة فى الكتاب العزيز حتى نعرف : ماذا كانوا يفعلون لنتأسى بهم ، ونعرف طريقهم الذى هو صراط الله المستقيم

وفى سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم نجد صفحات وعشرات الآيات تتحدث عن بنى إسرائيل إلى أن قال لنا ربنا : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ البقرة: ٧٥

أى بعد أن وصاهم الله بأن يتقوه ، وأن يتقوا يوماً يرجعون فيه إلى الله ، لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة

واتخذوا العجل من بعد أن واعد الله – تعالى – نبيهم موسى عليه السلام ودعوا إلى التوبة ، وبعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون

وبدلوا قولاً غير الذى قيل لهم ، فأنزل الله على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون

وجحدوا من بعد ما رأوا الآيات ، وإجابة الدعوات

(اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) ومن بعد لجاجتهم فى البقرة التى كلفوا بذبحها : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) ﴾ البقرة: ٦٨ – ٧١

ثم قال ربنا – تعالى – ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ البقرة: ٧٤

ثم قال الله – تعالى – ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ البقرة: ٧٥

ونحن نعيش مع أناس أشبه ببنى إسرائيل فى التقلب فى الفتن ، ونحصى عليهم ما لا يحصى من مواضع الكذب والخداع ، ومع ذلك نعاملهم ونصاهرهم ،

ونشاركهم ، ولا نضرب عنهم الذكر صفحاً، فأين الاعتبار ، والحكمة تقول : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)

وكذلك نجد مواضع العبرة فى الكتاب العزيز ، وفى السورة نفسها يتكرر ذكر بنى إسرائيل ، وغيرهم ، ونجد فيها حديث السفهاء عند تحويل القبلة :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾ البقرة: ١٤٢

ولك أن تتصور مدى ما يوحى به التعبير بالسفهاء فيمن يسأل السؤال التافه الذى هو بعيد كل البعد عن الفقه ، (مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ) والجواب :(قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ)

وتأمل قول الله – تعالى - : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ البقرة: ١٤٣

وقد قال العلماء : إنها نزلت فى الذين ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن إخوانهم الذين ماتوا ولم يدركوا الصلاة إلى البيت الحرام ، فقد صلوا جهة بيت

المقدس فقال الله ﷻ : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

ومعنى ذلك أننا أمة مشغول حيها بميتها ، ومن مقتضى الدين والعقل أن يكون انشغال الحى بالحى من باب أولى

أوصى أبو بكر رضي الله عنه أن يكفن فى قميصه ؛ فذكرته ابنته عائشة – رضي الله عنها – أنه رجل غنى ، فقال لها : إنّ الحى أولى بالجديد من الميت ، وبين لها أن هذا الجديد سيصبح مهملاً ، أى سيبلى بعد أيام

ذلك أيضاً من مواطن العبرة فى سورة البقرة ، ومنها أن العبرة من مشروعية العبادة تقوى الله ﷻ ، قال ﷻ : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾ البقرة: ١٩٧

وأن خير الدعاء الذى كان أكثر دعاء النبى ﷺ أن يسأل المسلم الله – تعالى – أن يؤتيه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ، وأن يقيه عذاب النار ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١) ﴾ البقرة: ٢٠١

ومن مواضع العبرة فى سورة البقرة بيان قدرة الله ﷻ على إحياء الموت ، ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٥٩) ﴾ البقرة: ٢٥٩

ومنها أنّ الذى يأكل الربا لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس كناية عن التخبط والاضطراب ، لا على سبيل الحقيقة ، فالشيطان بكل جنوده لا يملك للإنسان إلا الوسوسة : ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ (٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ (٣) مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ (٤) ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ (٥) مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ (٦) ﴾ الناس: ١ – ٦

وهو خناس : إذا ذكر الله – تعالى – رجع ، وكيده ضعيف : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ النساء: ٧٦

والله ﷻ يقول فى آية المائدة فى قصة ابنى آدم ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٣٠) ﴾ المائدة: ٣٠

قال : (فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ) ، وما قال : فطوع له الشيطان قتل أخيه فقتله

وقد ورد أن المسلم إذا أراد أن يتناول طعامه ، وقال بسم الله الرحمن الرحيم لا يأكل معه الشيطان ، ومعنى ذلك النجاة من حضوره ، ووسوسته ، ونزغه ، ومعروف أن الشيطان لا يأكل أكل الإنسان المعروف ، وإنما جاء التعبير بأكله مع مَنْ لم يذكر اسم الله – تعالى – لبيان بشاعة ترك البسملة عند تناول الطعام ، وأن وجود الشيطان وملازمته الإنسان بمثابة من يشاركه طعامه ، وبئس الشريك إذاً

وعلينا إنْ أردنا الاعتبار بحق أن نفهم هذه القضية حق الفهم ، وألا تعطيها أكثر مما يستحق حتى نفرغ الحق الذى هو كائن ، والواقع الذى لابد أن نعالجه بهدى ، ونور بصيرة ، وأن يكون انشغالنا بالواقع المعلوم أكثر من انشغالنا بالغيب الذى تفسره تفسيراً خاطئاً

إن الفرد الذى يعيش بلا اعتبار ، أو ادكار ، أشبه ما يكون بالجماد ، والجماد شيء ، لا يتطلع إليه أحد أن يكون أفضل مما هو فيه ، إذْ كيف يتحول الجماد إلى شيء ناطق بحياة

إلا إذا حوله الإنسان المبدع ، الذى يحيل مفردات الأشياء المتنافرة المتباينة إلى بناء جميل ، يراه الناظرون فيسبى نواظرهم ، ويأخذ بنواصيهم إليه ، فهم يرمقونه ، ويظلون ينظرون إليه ، حتى إذا نأوا تلفت إليه القلب منهم ؛ لأنهم به معجبون ، وإن شئت قلت مفتونون

حتى فى اللغة ، مع أنها كما نعرف كائن حى ، ما أحياه إلا الناطقون به ، والمبدعون الذين يستعملون مفرداته ، فينظمون منها أروع القصائد ، وأجمل

القصص ، وأرق المقالات التى قد تسابق الشعر مع أنها من المنثور ، تلك هى عبقرية الإنسان ، فى اللغة ، وبناء المنازل ، وزرع الحقول ، وترتيب الزهور ، وصوغ الألحان ، بل وإعداد الطعام ، الذى قد تراه بعينيك نيئاً ؛ فتقول : لا أحب تناوله أبداً ، فإذا أمسك به الفنان ، ذكراً كان أو أنثى (طباخاً) أو (طباخة) وأضاف إليه من خبرته ، والخبرة ضرب من ضروب العبرة ؛ لأن صاحبها قد اعتبر حيث رأى غيره المجيد ، يفعل شيئاً جميلاً فاعتبر ، وعمل عملاً جميلاً ، فغيّر صنيعه ، ثم أضاف بعد ذلك من عنده بإضافة شيئاً جميلاً آخر ، سواء أخذه من غيره أيضاً ، أم ولده من عنده ، وأراد أن يأخذه عنه غيره ، لا من باب الشهرة والرياء ، وإنما من باب حب الخير للناس ، وإذا كنا على يقين أن الحياة خبرات ، وأنّ الذى تراه آية إبداع فى شتى مجالات العلوم والآداب إنما هو تنمية تأثر الناس بالناس فعلينا أن نفهم أن ذلك عبرة ، وأن العبرة آتت أكلها حين تخلص الإنسان من سوء كان يعمله يظن أنه حسن

إن فكرة التخلص فى ذاتها من سوء ما نعمل لا تتأتى إلا عن اعتبار ، فلولا العبرة من ترك الكافر دين أبيه وجده ، وصار مؤمناً يضرب به المثل فى التقوى والورع

ولولا العبرة ما ترك مدخن التدخين وقد سرى فى دمه ، لما رأى من مآل المدخنين الذين رمى بهم التدخين فى غياهب الهلاك ، وسوء الأمراض التى أدت به إلى القتل ، ولولا العبرة ما ترك الإنسان عادة سوء كان يعملها ، لما رأى من سوء عاقبة الذين كانوا يعملونها قبله

فالعبرة بكل المقاييس تبرز مكنونات ذلك المخلوق العجيب (الإنسان) أى تظهر عبقريته ، التى ما كانت لتتجلى آياتها فى صناعة يصنعها ، أو فى زراعة يزرعها ، أو فى بحث بقيمة ، أو فى قصيدة ينظمها ، أو فى سلوك يسلكه

وأرى أنه إذا تمكن درس العبرة من إنسان صفت نفسه ، فإذا صفت نفسه استطاع أن يبدع ، واستطاع أن يرى الدنيا من حوله آيات العبقرية فيه ، وأذكر فى هذا السياق قصة طريفة أنّ رجلاً مرّ بنجار مبدع ، يتعامل مع أدواته كما يتعامل المايسترو مع فرقته المتناغمة ، التى تحقق ما يريد بإبداع بإشارة من إصبعه ؛ وكان يمر عليه كل يوم ، فلا يستطيع مفارقته حتى يقف أمامه برهة ، وكأنه يغذى عينيه مِنْ مشاهدته ، وهو يدق مسماراً فى طرفة عين ، ويدير قطعة خشب كما يدير صانع الرقاق قطعة العجين تتسع بين راحتيه والهواء ، وكأنه ساحر ، فسأل ذلك الرجل النجار سؤلاً مهماً ، لا يخطر على بال كثير من الناس ؛ فقال له :

- أذلك الجمال الذى أنت فيه راحة بال أم حسن صنعة !
- فأجاب النجار بسرعة وبدون تردد
- من حسن صنعة !

وفى اليوم الثانى مرّ به على عادته ، وسأله السؤال نفسه فأجاب كذلك

من حسن صنعته طبعاً !

وحدث شيء بين هذا النجار ، وبين زوجته ، فتعكر صفوه ، وتكدرت نفسه ، فلما أصبح ، وذهب إلى دكانه ليس على عادته مبكراً ، وإنما تأخر قليلاً ، وفتح الدكان وقلبه مغلق ، وجاء ليدق المسمار على عادته فى خفة وإتقان ، فأصاب يده ، وصادف أن كان هذا الرجل واقفاً ،

وسأله السؤال نفسه

- عن راحة بال أم عن حسن صنعة ؟
- فأجاب قائلاً :
- عن راحة بال
- أدرك النجار أخيراً أن راحة البال هى سبب الجمال الذى يتأتى من إتقانه صنعته
- وحسن الصنعة بلا شك مطلوب ، ومهم ، وأساس لكن لا قيمة له مع سوء البال ؛ لذلك قال الله – تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ محمد: ٢

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾ محمد: ٢

وكذلك العبرة ، إنما هى بمثابة راحة البال ؛ لأنها تؤدى إلى صفاء النفس التى تغيرها غيوم الذنوب والمعاصى والأهواء ، ولله در الشافعى حين قال :

شَكَوْتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي
فَأرْشَدَنِي إلى تَرْكِ المَعَاصِي
وَأخْبَرَنِي بأنَّ العِلْمَ نُورٌ
ونورُ اللهِ لا يؤتى لعاصي

والنفس إذا تخلصت من غيوم الذنوب والمعاصى والهوى انجلت ، كعروس الحسن إذْ جليت ، وتكشفت كما تتكشف السماء الصافية ، فينفسح الطريق ولو كان ضيقاً ويبصره المنطلق إلى غايته دون معاناة

ولا شيء كالعبرة يصفى النفس من أدرانها كالماء يخلص البدن من أدرانه فإذا هو نشط ، كما ينشط المفيد إذا فك من قيده ، وينطلق كالريح ، وإن كان عليلاً بطيء الخطوات ؛ لأن انطلاقه من قيده فتح جديد ، وروح وثابة نفخت فيه فجأة ، فإذا به وكأنه يحيا حياة جديدة

بقلم

أ.د / مبروك عطية

الأستاذ فى جامعة الأزهر الشريف

الفهرس

رقم الإيداع

٢٠١٢/١٦٨٩٥